صاحبها ورئيس تحريرها

مدحة عكاش

MADHAT AKKACHE

الثقافة

مجلة ثقافية أدبية تصدر في دمشق

دمشق ـ ص٠ب (٢٥٧٠) هاتف ٢٢٩٩٨٤

كانون الاول

١٩٧٥

ملحق العدد ٤٩

عودة إلى المغرب الحبيب

ومرة ثانية نعود الى المغرب الحبيب ...
نعود اليه من خلال مهرجان ابن زيدون، وما قدمه هذا اللقاء الكريم من عطاء أدبي خلاق ..
وبما أتاحه من تعارف بين أدباء المشرق العربي ومغربه ...

وانه لما يسعد مجلة الثقافة أن تلتقي على صفحاتها المتواضعة تلك النخبة الخيرة من أقلام أدباء هذه الامة ..

ويزيد في سعادتنا أن تكون هذه المجلة رسول الادب الى مغربنا العربي من مشرقه، ومن مشرقه الى مغربه ...

فالضرورة أكثر من ملحة لتلاقي هذين الجناحين اللذين بكبير الامل ننظر الى لقائهما ليرتفع الادب عاليا وتظل راياته خفاقة في سماء الفكر الحضاري ..

واذا كان لنا أن نقول شيئا هنا فلا بد من التوجه بالشكر الى أدباء المغرب العربي الحبيب الذين ساهموا باغناء هذا العدد بما قدموه ..

وعهد علينا أن نبذل قصارى الجهد لتمكين هذه الروابط الادبية التي هي الاساس المتين لما ننشده جميعا لامتنا العربية من آمال في كل مجالاتها ..

رئيس التحرير

بين ابن زيدون الأندلسيّ وبترارك الايطالي

• الأستاذ الباحث : عثمان الكعاك •

الذي حداني لاختيار هذا الموضوع : ابن زيدون الاندلسي العربي وبيتراركه الايطالي هو وجود نقاط شبه كثيرة في الرجلين : مردها الى ثلاثة وجوه اصلية •

الوجه الاول :

النقد الخارجي ، واعني به شكل الشعر دون المحتوى، وهو الشكل العروضي والمظهر البلاغي •

الوجه الثاني :

النقد الداخلي ، أعني به الاعراب عن الحب لولادة من طرف ابن زيدون ، والاعراب عن الحب للورا من طرف بيتراركه ، وما يحتوي عليه ذلك من خلجات متشابهة ، وخصومات ومنافرات وهيام ملتهب • وما يتبدى من خلال ذلك من مظاهر جديدة للحب تقترب كثيرا من تقديس المرأة لذات المرأة ، ومن عبادة الحب الى درجة الجنون • واعتبار المرأة لا اداة شهوة ولهو ومتعة بهيمية بل فيها تنحصر ارفع معنى الجمال والحب •

الوجه الثالث :

ما ظهر في هذا العصر بالذات أو قبله بقليل منظهور الحب المتطرف ، باوروبا ، انطلاقا من كتاب طوق الحمامة لابن الحزم ومن الموشح الاندلسي الذي ولد الازجولة الاسبانية والاهزوجة الايطالية وما شعر بيتراركه في لورا الا هذه الاهزوجة الايطالية فما كان تأثير ابن زيدون في كل ذلك ؟ وما كان تأثير دانتي من كل ذلك وتأثيره بالتبعية في معاصره وزميله بيتراركه ؟

هذه رؤوس أقلام الموضوع الذي سنبسطه فيما بعد •

ولكن هناك اسئلة ترد عفوا وكأنها تقف حجر عثرة دون طرق الموضوع نفسه •

فابن زيدون وبيتراركه لم يلتقيا زمانا ولا مكانا •

ففي الزمان : ولد ابو الوليد احمد بن عبد الله بن احمد بن غالب بقرطبة سنة ١٠٠٧ م وتوفي باشبيلية سنة ١٠٧١ م •

وولد فرانتشيسكو بيتراركه بمدينة اريكزو سنة ١٣٠٤ ومات بمدينة آركو سنة ١٣٧٤ •

فبينهما في الولادة : ابن زيدون ١٠٠٧ ، وبيتراركه ١٣٠٤ ثلاثة قرون الا ثلاث سنوات • وهذا فارق كبير ، وبينهما في الوفاة : ابن زيدون توفي سنة ١٠٧١ ، ومات بيتراركه سنة ١٣٧٤ فالفارق يزداد هنا ايضا ويرتفع الى ثلاثة قرون وثلاث سنوات •

ونبادر الى الاجابة عن هذا، بان الفارق البيئي لا يفترق• فالاندلس لا تزال قائمة ولا يزال المسلمون بجزيرة صقلية ولا يزال الادب الايطالي منطلقا من الادب السيسلي الذي هو نفسه خاضع للادب الصقلي العربي •

فدانتي زميل بيتراركه ومزاحمه واخوه في الحب بموجب حبيبته بياطريص أعني دانتي هو ايضا متأثر بالادب العربي ، فكوميديته الالهية مستقاة من سورة الاسراء بل السورة فيها مسرودة سردا لفظيا بالحرف اللاتيني ، وهو يستمد من سورة الاسراء قصة البتراركه ومن رسالة الغفران لابي العلاء ورسالة الزوابع والتوابع لابي عامر ابن شهيد محتوى قصته الا انه ابدل الادباء العرب بادباء الرومان •

وقضية اتصال ابن زيدون ببيتراركه شديدة الالتحام بقضية تأثير الادب العربي على الادب الايطالي من القرن التاسع الى القرن الرابع عشر أي طوال خمسة قرون ٠

ففي سنة ٨٠ فتح المسلمون سردانية ، وتأكد هذا الفتح على عهد الفاطميين حتى سمي متنزه من متنزهات القيروان بسردانية ويسمى الآن الشرشرة ولا تزال حناياه الفخمة تسخر من حنايا الرومان في كل مكان ٠

وفي سنة ٢١٢ هـ فتح اسد بن الفرات قاضي القيروان الحنفي ومزاحم سنحون جزيرة صقيلة انطلاقا من مدينة سوسة ومات تحت سور سرقوسة مدينة لوخيميدس وعبد الجبار بن حمديس في الآن الواحد ، وازهر الادب والمعمار العربي والحضارة العربية بجزيرة صقلية في عهد ملوكها الحسنيين الكلبيين وفي عهد النورماندي ولا سيما في عهد رجاء الثاني الذي كان يعيش فيه صاحبكم وصاحبنا وصاحب العالم اول جغرافي عالمي الشريف الادريسي صاحب نزهة المشتاق ٠

وفي نظري ــ والله اعلم ــ انه ربما استقي ذلك كله من رسالة الانتقاد لابن رشيق القيرواني كان يعيش ببلاط ابن متكود في مدينة مازرة بصقلية الغربية ٠

ونعود الى كل هذا فيما بعد واذن فانتقاء المواكبة الزمنية لا يقوم حاجزا ولا حجة ٠

بقى الفارق المكاني : فقد عاش ابن زيدون بين قرطبة ولكن بيتراركه عاش في ايطاليا وفرنسا والجنوب الغربي من فرنسا وزار معظم الاقطار الاوروبية بما في ذلك اسبانيا ، زار اسبانيا العربية حينما بقي قرن ونصف لزوال دولة المسلمين بغرناطة ١٤٩٢ و ٢٣٨ سنة لاجلاء المسلمين النهائي بامر من ملك اسبانيا فليب الثالث ، وباسبانيا يعيش في الشمال المسلمون الثغريون وهم المدجنون المختصون في الادب والموسيقى والمعمار الاسلامية المطبقة على النصارى ولفائدتهم ٠

وكان جنوب فرنسا نفسه والى عصر شعراء البلياذة متأثرا بالموشح والخرجة والبلاغة العربية ٠ واذن فزيارته واقامته بابينيون وبالفلكلور وباكيطانيا قد سهلت عليه الاتصال بالموشح والرجل وترجمات الكتب العربية الى اللاتينية وقد كان من المولعين بهذا الموضوع ، ومن ائمته ٠

واذن فاستحالة التلاقي المكاني اضمحلت وتبخرت بوجود التلاقي البيئي المتماثل من عصر ابن زيدون الى عصر بيتراركه ٠

بماذا يمتاز ابن زيدون ؟ بحبه لولادة حبا رفيعا حبه الشديد المتحمس المتدفق المتراوح بين النجاح والخيبة والاقبال والاعراض ٠

بماذا يمتاز حب بيتراركه ؟ بانه انفجر انفجارا ذريا وكان أكبر حادث في حياته يوم التقى بلورا في كنيسة أبينيون يوم ٦ ابريل ١٣٢٧ ، فمن اجلها وقع تحت سلطان حب صار مثله الاعلى كل يوم بالزيادة، واوحى له هذا الحب بموشحاته المسماة القوافي وهي تنقسم الى قوافي ولورا في قيد الحياة ودام تاريخها من ١٣٢٧ الى ١٣٨٤ حينما ادركها حمامها ، ثم قوافي ما بعد الممات قد انتهت ولم ينته الحب ولا نظم القوافي ٠ فحياته الغراميه مع لورا هي نفس حياة ابن زيدون مع ولادة بنت المستكفي مع فرق واحد هو ان الاول كان بموت لورا وفراق الثاني كان بلا مبالاة ولادة ٠

ودع الصبر محب ودعك ٠٠٠٠

واذا رجعنا الى القوافي وجدناها نجحت نجاحا لايزال قائما وقد كان لها تأثير عظيم على نشأة وتطور الشعر الغنائي الايطالي فنحن نجد فيها روح بيتراركه الولهي المتلهب حبا، نجد فيها هيامه الساحر الخلاب الفاتن الرائع ، وضعفه امام لا مبالاة لورا ، كضعف ابن زيدون وثوراته العاجزة أمام لا مبالاة ولادة : ونجد متناقضاته كمتناقضات ابن زيدون يحب لا يحب ، يغضب لا يغضب ، يصل يفصل؟ حيرة وارتباك ادى ذلك كله الى حيرته وقلق نفسه التي جعلته عند الاوروبيين بما فيه من وصف للوعة الغرام وخلجات النفس اول شاعر معاصر ، كما كان ابن زيدون اول واسمى واعظم شاعر غرامي اندلسي واوربي ومغربي في الآن الواحد ٠

ولنلق بنظرة على القوافي وهو العنوان الذي عنون به أهم دواوين بيتراركه بعد موته ، وهو يتركب ٣١٧ موشح غنائي و٢٩ اهزوجة وتسعة مسدسات وهو نوع موشح اندلسي ومغربي معروف ، انتقل الى أوروبا • فكر بيتراركه منذ سنة ١٣٥٠ في جمع اشعاره الغنائية الغرامية فتم له ذلك سنة ١٣٥٦ لكنه استمر على مراجعة ذلك وتناوله بالصقل فصدرت طبعته الاولى بالبندقية سنة ١٤٧٠ •

وكل هذه الاشعار ما عدا ٣٠ منها تتعلق بحبه للورا • ففي تاتم حياتها كان يتغنى باحاسيسه الجذلى أو بقلقه ومآسيه وكل مايوحى اليه به هذا الغرام العنيف الصادق •

وفي القسم الثاني ـ اي بعد موت لورا يتغنى الشاعر باله العنيف في اوله ثم يهدأ رويدا رويدا ثم يتصفى ويرتفع الى القمة نقيا ساميا طاهرا مجردا • وتبدو له لورا في حبه وتؤسيه وتبين له أنما يستحق منها الحب وحده وهو روحها لا يزال حيا خالدا • وختم هذا التطور بنشيد العذراء

ثم جاءت دولة المانيا وهي دولة هوهنشتا ومن التي جمعت بين تاج ارغون باسبانيا وتاج سيسيليا • واستمر ذلك الى ما بعد ممات بيتراركه واستمر العرب في صقلية الى هذا العهد •

واول ظاهرة ثقافية كبرى مشتركة هي ظهور قسطنطين بن ابي عبد الله محمد القيرواني بمدينة سالرن وجبل قاسم فاسس أول جامعة طبية حديثة في أوروبا • وأول مدرسة للترجمة من العربية الى اللاتينية او العبرانية • واهتم على الخصوص بتآليف ابن الجزار فترجم منها بخاصة كتاب زاد المسافر الذي استمرت اوروبا على تدريسه الى القرن السابع عشر الميلادي •

• ثم دخل صقلية الموشح الصقلي الذي نجد اثره في موشحات أبي الحسن علي البلنوني ، وبعض ديوانه يوجد في المكتبة البلدية ببالرمو وهو شاعر من بلنوبه وهي تبعد نحو ٢٠ كم عن بالرم عاصمة صقلية ، وجاء الموشح والزجل السبرداني وجاء انتشار أدب الطروبادور بجنوب فرنسا وهو قائم على أمرين اساسيين الاول الموشح والخرجة ثم الزجل باللغة الفرنسية البروفنصالية وثانيها الحب العذرى اوالحب المتطرف المنطلق من رسالة ابن حزم وكلمة طروبادور من الطرب دور الطرب او الطرب الذي يدور باعتبار ان هؤلاء المداحين الزجالين كانوا يقرعون النقرات ويوقعون على الرباب وينتقلون من مكان الى مكان • فتحيي الفاظ آلاتهم عربية • ومحتوى اشعارهم هو الغرام العذري أو المتطرف العربي والنظام العروضي لهذا الشعر هو الموشح مع وجود الخروجة أو الزجل ومع ان اللغة هي البروفنصالية التي اقتبست كثيرا من العربية ، اما الخرجة فهي عربية • لان الخرجة هي تلخيص لموضوع الموشح في المناطق التي بها اغلبية واقلية فتكون الخرجة بالعربية ، وكذلك بايطاليا حسب العصور الحفلات • فبالاندلس يكون الموشح بالعربية والخرجة بالاسبانية ، وفي البرتغال كذلك ، أما في جهات اسبانية التي تغلب فيها الكدتالانية او القشتالية او البرتغالية فتكون الخرجة بالعربية ، وكذلك بايطاليا حسب العصور والجهات ، وكذلك بجنوب فرنسا كما مر بنا •

فصاحبنا بيتراركه متعود على هذا الموشح ذي الخرجة العربية ومتعود على شعر صاحبه دانتي الذي فيه اوزان عربية ودرجات عربية وحتى آيات قرآنية •

ولا يجب ان ننسى ان قصة المعراج التي تضخمت بالزيادات حتى صارت مغناة كاملة قد ترجمت لجمالها وطرافتها ١٥ مرة الى البروفنصالية و ١٦ مرة الى الاسبانية فاستقى منها دانتي ما شاء وعرفها بيتراركه عن كثب •

وهناك البلاغيات الطاغية التي طغت على الادب العربي حتى صار كامرأة كثيرة الزينة والحلي ـ قد طغي على الادب الاوروبي وخصوصا الايطالي ـ كذلك • وبقي طاغيا الى القرن السادس عشر عند شعراء البلياذة مثل رونسارود وبلله وغيرهما الذين يقال عنهم انهم اخذوا عن بيتراركه • ويجوز انهم اخذوا عنه لكن الى حد ما بل اكثر المآخذ عن

الادب العربي الاندلسي والادب الطروبادوري الذي هونفسه آخذ عن الادب العربي ٠ وقد كتب عن البلاغيات في الادب الفرنسي في ذلك العصر ، ومايجوز على الفرنسي يجوز على الايطالي فورتونا سكروفسكي كستابه كبار البلاغيين وهو كتاب جليل تجب قراءته ٠ وقد انتقد بيتراركه نفسه من من أجل غلطة في البلاغيات تأثرا بالادب الاندلسي ٠

وشيء آخر نجده في شعر بيتراركه وشعر ابن زيدون ولم يكن معروفا الا إنطلاقا من القرآن الكريم هو موسيقية الشعر وتنسقة الحكائي أي حكايته بايقاعاته والحانه ومقاطعة لخلجات الصدر وصور المحكى الايقاعية والصوتية فخلجات السرور عند الانتقاء محكية عند بيتراركه وابن زيدون بتناسق حكائي يصور النبرات والاصوات والاحاسيس ، والفرق فيه واهات وتنهدات تحكى الحروف والايقاعات ولوعات الغرام السامي موسيقى الاهية كمزامير داود وتخلص الشعر من الماديات والبهيميات تخلص استصفاء جعله في المرتبة العليا هو ما نحس به في القوافي وفي الشعر الايقاعي الزجلي لدى ابن زيدون كما نحس به في الازجولة الاسبانية والانشودة الايطالية ٠

وما نجد في البديعية العربية التي جمع شعرها انواع البديع نجده في القوافي التي الفها بيتراركه ٠

ومن تتبع شعر القوافي عن كثب وقارنه بديوان ابن زيدون وجد الموافقات الكثيرة التي لاتدخل تحت حصر ،كما نستدل على كل ذلك بما اوردنا في الملاحق قرارا من الاطالة التي تورث الملالة ٠ وفوق كل ذي علم عليم ٠

عثمان الكعاك

ترجمة بيتراركه

الملاحق ــ القسم الاداري

ولد فرنشيسكو بيتراركه في يوليو ١٣٠٤ فهو يصغر عبد الرحمن ابن خلدون بـ ٢٨ سنة ٠ وكانت مدينة اريتزا مسقط رأسه فهناك كان ابوه سيربتراكو العدل الذي اصله من فلورانسه قد التجأ مع عائلته من اجل الاضطهاد الذي لحقه ٠ ولم تطل اقامته بهذه المدينة ٠ فسرعان ما انتقل والداه الى مدينة ابينيون على نهر الرومان بفرنسا وكانت يومئذ مقر البابوية ٠ وهناك نظرا للوسط الثقافي الرفيع بدأ تعلمه ٠ فدرس اللاتينية بمدينة كربنتراس والقانون الكنائسي بمونبيليه ثم ببلدة بولونية بايطاليا وذلك لان اباه كان عاقد العزم على أن يتخذ منه مضلعا في القانون ٠ ولكن صاحبنا كان ينوي غير ذلك فقد كان يحب الحياة الحلوة وسرعان ما نودى به الرجوع الى افنيون لان اباه قد لقى حتفه سنة ١٣٢٥ وماعتم ان لحقت به زوجته اليتا كانيجاني

وبذلك تحرر من كل القيود ، فودع القانون واقبل على المهنة الاكليروسية ٠ وهكذا اتيح له ان يمارس فن الشعر وان يكتسب من ذلك مغانم طيبة ٠

وهذه هي الفترة المنطلقة من القيود من حياة شاعرنا واكثرها انتاجا ٠ فقد كان الناس يرغبون في نتائج فكره فارتبط بصداقات مع عدة شخصيات مشهورة سواء من ناحية محتدها أو من حيث سعة علمها ٠ وهكذا اتصل بالاسقف جاكمو وبالكردينال جوفاني اللذين ادخلاه الى البلاط البابوي حيث حصل على الرتب الكنائسية والارباح الوفيرة ٠

فعرف الصداقة النافعة والغرام المتحمس الفياض ٠ ففي يوم الجمعة المقدسة ١٣٢٧ وفي كنيسة سانت كلارا بابينيون التقى بتلك التي استاسرته عيناها وقيدته على مدى الحياة « ــ تلك هي لورا ولورا بيتراركه كما تقول بثينة جميل وليلى المجنون الخ٠٠ وكما كانت بياتريتشي معبودة دانتي كانت لورا معبودة بيتراركه » لانها كما قال ــ اجمل امرأة في القرون الوسطى مع البياتريتشي التابعة لدانتي ولكنها كانت متزوجة ولها احد عشر طفلا ٠

ومما كون الدراما انها كانت وفية لزوجها وكان هو وفيا لغرامه وقد اتخذ من لورا غالة الكامل ومحيط حياته ٠

فدفعه ذلك الى الارتجال ٠ فزار فرنسا وبلجيكا ودينانيا فكان يمعن النظر ويمتع النفس بجمال الطبيعة ويدرس فولكلور البلاد التي يقطعها ويدقق النظر في مخطوطات

الحوانيس الثمينة وينسخ ويستنسخ ويشتري ٠ ولكن هيهات ان ترضى نفسه تلك الرحلات اوالدراسات العالية بل كانت تقوى شوقه الى روية بلاده ٠ فذهب الى روما ودرس اثارها وعرف اخبارها ثم رجع الى ولاية الفوكلين بفرنسا في اماكنه سحرية بخضرتها وجمالها ٠

ثم جاء الوباء الجارح في سنة ١٢٤٨ فقضى على نورا كما قضى على عائلة ابن خلدون ونفس السبب اخذ بيتراركه عصا الترحال التي اتت به مرة اخرى الى ابينيون ٠

امر على الديار ديار ليلى
اقبل ذا الجدارا وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي
ولكن حب من سكن الديارا

نقارن بين نورا وولادة ٠ ولادة بنت المستكفى التي اعتنى ابوها بتربيتها وتاديبها وتثقيفها ٠ وتوفي ابوها سنة ١٠٢٥ ثلاثة قرون قبل حوادث نورا وبيتراركه ٠ فما هي الاعشية او ضحاها حتى اتخذت لها صالونا ادبيا وعلميا عظيما كانت تختلف اليه النخبة العليا المثقفة من صفوة شعراء قرطبة وادبائها ، قال ابن بسام في الذخيرة : « كان مجلسها بقرطبة منتدى لاحرار العصر ، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر يعشو اهل الادب الى ضوء غرتها ، ويتهالك افراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها الى سهولة حجابها وكثرة منتابها ٠

وكان ابن زيدون احد الذين اجتذبتهم ٠ قال عن نفسه : لما قدر اللقاء وساعد القضاء كتبت الي :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي
فاني رأيت الليل اكتم للسر
وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا
وبالليل ما ادجى ، وبالنجم لم يسر

فلما طوى النهار كافوره ، ونشر الليل عنبره اقبلت بقد كالقضيب وردف كالكثيب ، وقد اطبقت نرجس المقل على ورد الخجل فملنا الى روض مدبج وظل سجسج ، قد قامت رايات اشجاره ، وفاضت سلاسل انهاره ، وذر الطل منثور ، وجيب الراحى مزرور ، فلما شببنا نارها ، وادركت فينا نارها ، باح كل منا بحبه ، وشكا اليم ما بقلبه ٠ وبتنا بليلة تجلى اقحوان الثغور فلما انفصلت عنها صباحا ، انشدتها ارتياحا :

ودع الصب محب ودعك
ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على ان لم يكن
زاد في تلك الخطى اذ شيعك
يا اخا البدر سناء وسنى
حفظ الله زمانا اطلعك

ان يطل بعدك ليلي فلكم
بت اشكو قصر الليل معك

ويقابل هذا عند بتيراركه اهزوجته التي عنوانها اللقاء الاخير :

كم يشتد بي الخوف عندما يرجع الى ذاكرتي
ذلك اليوم الذي تركت فيه حبيبة قلبي
شجية مفكرة وتركت معها فؤادي
وليس من شيء استحضره اطيب الى نفس واتطلبه في معظم الاحيان من ان اتصورها ٠٠٠
فاراها ماثلة بحياء ما بين تلك النساء الفاتنات مثل وفوى وردة بين ازهار دونها جمالا ٠
لا ازال ارها لا جذلى ولا حزينة
كمن يشعر بالخوف وليس له شعور آخر
لقد ودعت اناقتها المعهودة
جواهرها وقلائدها واوشحتها
وانسجتها الزاهية
وضحلها وغناءها ولطف حديثها العذب المحبوب وهكذا ساورني الشك ٠

وجه الشبه الاول بين ابن زيدون وبيتراركه هو انهما ممتلئان شغفا وضعفا ، شغف ابن زيدون بولادة ولكن ولادة متقلبة سرعان ما قلبت له ظهر المجن واتصلت باعدائه فاظهر حب البعض منهم ، الى حين على الاقل ، وشغف بيتراركه بلورا المتزوجة الولود — هي « ولادة » بحق — فهي ذات بعل وذات أطفال « ليس له من حبها الا النظر »٠
فحبه في شخص لايقدر ان يبادر له الحب فهو كما يقال المثل التونسي : « اخزر بعينك وموت قلبك » ٠
فصارا يتغنيان بما يريان في صديقتيهما من جمال في الشعر والعيون والقد والخد ٠ وصارا يحجان الى مزارات الحب ويتغنيان بها بيتراركه بمزارات ابينيون وغيرها وابن زيدون بمزارات قرطبة ٠
وهذه الضوضاء في قلبيهما ولدت شعرهما الذي يكتسي صبغة خاصة هي الشجى والميلاخوليا والقلق والبكاء مما يسمى في الشعر الاسباني او البرتغالي ٠
كلاهما ارتمى على الملذات فعض قلبه الندم ٠ فاتجه الى الله تعالى لكن الحب مزق احشاءه ٠ فاقبل على الشعر يسجل فيه ذكرياته واساه فبلغ به درجة ٠ وشعر ابن زيدون ولد طرازا من الشعر بين الشعر العذري الذي يتغنى ولا يصل والشعر الذي يتغنى ويصل ، وهو الشعر الذي يتغنى بربة الصالون ليصل ٠
فانتشر هذا الشعر في الاندلس عند الجميع واخذ الناس وفي مقدمتهم الاسبان فاستحضروا شعر الزجل او « الازجولة » ٠

دمشق

• إسماعيل عامود •

من أجل عينيك يجري الغيم والمطر   يا كرمة في جبال الريح تنتشر

ما رحت أمسك قلبي عن مفاتنها   الا احتواني في درب الشذى ، قمر

قد جئت أشرب وجها منعما فتنا   في غوطتيك ، فغنى السفح والنهر

يا غادة الشام .. يا هما أكابده   هل لي بعينيك كوخ فيه أنتظر

شعر ـ لعمرك ـ ما دونت أحرفه   الا ليثمر في تشرينك ـ الزهر

أفدي بغوطتك الرهواء ملحمة   للخصب يكتبها في ربعك ـ الشجر

شاد مع النجم يحدو عبر دالية   في قلبه الخفق ، نهر العشق ينمهر

ريح على الدرب قد وافت تصافحني   والرائع السمح فيها البرعم النضر

مري على سحبي يا شام ضافية   يحيا اليباس ويشدو ، وحده المطر

أنى تسللت هذا الشعر يحضرني   في جانحيه ، طيور شاقها السفر

اسماعيل عامود

عينك من خشب

بقلم

• محمد الصباغ •

ينقط الارض • يخططها • يكتب برحيق القسوة أبجدية ضريرة • بارتباك وحذر يتنقل • كل ما حوله ، كأنه هاوية : الجدران الاحجار • العتبات • المنعطفات • العربات •

قبل ان يتنقل يتلمسها برهافةمن هذه الاصابع المشفقة التي تمتد اليه فتهديه في غمرة هذه الزحمة من الناس ، والدواب ، والضجيج ؟

عن يمين قدمين ، يابستين ،حائرتين ، يمشي هذا العكاز متحسسا ، وهو يقود كتلة مقفلة من لحم بارد ضاع مفتاحها • لا أحد يعثر عليه • لا أحد • فاستوى رفيقا رحيما في يمنى « عبد البصير » • عمود من ضوء هذا العكاز ، يفتح بنوره ركام الظلام ، ومنغلقات الزحام ،مرآته ، وملمس اصابعه هو ، تياره المرهف الذي يحمل اليه خبر :

اقامة حجر صلد هنا ، وعلو جدار هنالك ، وجلوس كيس فحم في هذا المنعرج ، وعمق حفرة في تلك الزاوية ، وخطر وحل يترصده في ذلك المنعطف •

لو سئل « عبد البصير » عن أي شيء لديه في الحياة لاجاب بدون تفكير :

ــ عزيزي « المصطفى » •

هكذا يجيب بدون ان يشعر بان مصطفاه هو عكازه • قضى معه اكثر من ثلاثين سنة في صداقة حميمة ، دون ان يقوم بينهما أي نزاع •

لو سئل « المصطفى » عن أحب شيء لديه في الحياة ، واستطاع ان يفصح عن الجواب ، لاجاب :

ــ عزيزي « البصير » •

بعد ان غزا الوباء صباحه صفو « عبد البصير » في قرية « بو سملان » ، ولما يبلغ العاشرة من عمره وهما في عناق حنين مكين •

في هذه القرية التي تضطجع على سرير الصخور ، وملاءة المياه رأى « عبد البصير » نصف النور ، بجوار « حمة » مقدسة تظللها صخور تشكل شخوصا غريبة ، منها ما هو على اشكال وجوه بشرية مشوهة ومنها ما هو على صورة حيوانات مرعبة •

من ذيول الصخور التي انبسطت على التراب، تتفجر مياه وتنساب حتى تكون بحيرة صغيرة يسبح فيها الناموس البري ، ويلهو على صفحاتها باجنحته، فيبتدع رسوما تكعيبية وتجريدية لا يفهمها الا هو •

فوق الصخور بقايا شموع خامدة بالوان مختلفة منها : الاحمر ، والاخضر ، والابيض ، منثورة مع قطراتها الملونة • في بعض زوايا « الحمة » أشلاء صحون من الفخار الاحمر •

أشجار التفت أغصانها ، وتضخمت سيقانها تنزل الظلال فيئا منشدا صداحا للذين يرتادون « الحمة » من أهالي « تطوان » وضواحيها • غالبيتهم تتألف من النساء وخصوصا العجائز منهن اللائي يعتصمن بهذه « الحمة » البركة التي تلبي رغباتهم •

في أغصان هذه الاشجار لفافات صغيرة من الثوب الابيض ، تضم حروزا وتعاويذ معلقة فيها مع مناديل ملونه شفافة • اشجار لا تطعم الا الحروز •

فواكه تعاويذ استأنست بها طيور «بو سملان» فباتت مناقيرها عليها ، واعشاشها في اكنافها • مجموعة حروز :

حرز تتمنى صاحبته الحبلى ان تنجب بنتا • لها ستة ذكور كفاها ذكورا • ترغب في بنت لتساعدها على الاعمال المنزلية من عجين، وطبخ ، وغسيل، وتنظيف • تريد ان تبتهج بزواجها • اذا استجابت لرغبتها « الحمة » فهي تعدها بذبح كبش أقرن نذرا لها •

حرز آخر ، عقد على رغبة صاحبته العاقر في ان يهبها الله طفلا او طفلة • قضت مع زوجها خمسة اعوام دون ان ينجبا شيئا • كلاهما يتهم الاخر بالعقر • الزوج يهدد الزوجة بالطلاق اذا هي لم تنجب •

حرز آخر ، لف على امنية عجوز في ان يشفى زوجها من مرض « الصرع » اذا شفي زوجها فنذرها مع « الحمة » ذبح جدي سمين •

وآخر •• وآخر •• كثيرة هي الحروز المعلقة في الاغصان •

« عبد البصير » الطفل وهو في سنة الباكر يجتمع مع الوافدين على « الحمة » ويتنادى معهم منصتا الى احاديثهم وشكاويهم ، ورغباتهم ، واعتقاداتهم ، يرجونه من وراء تعاويذهم

وحروزهم ، ولا يتردد في خدمتهم، وتعريضهم بقريته : «بوسملان» من احاديثهم عن الحياة في « تطوان » ويسرها ، واضاءة بيوتها بالنور الكهربائي وما في هذه البيوتات من اجهزة الراديو التي تنطلق بالاغاني والمسليات، وما الى ذلك من انواع الترفيه واليسر والترغيب ، هفت نفس الصبي القروي الى رؤية هذه المدينة العجيبة التي لا يعدم فيها العمل عند «خياط» أو « نجار» او «اسكافي» ويهجر الكوخ المظلم والصخر الجبار والوحل في الشتاء ، والقيظ في الصيف ، مبتعدا عن شظف الحياة ..

لم يكد يعقد الصبي عزمته على الرحيل الى مدينة الراديو ، والسيارة ، والتلفزيون ، حتى اقتحمه وباء « الجدري » بعاتيات عواصفه وزوابعه الشريرة ، فأطفأت سراج عينيه وصوحت بيانعات نورهما .

كتلة من ظلام اصبح « عبدالبصير » .

يجهد نفسه ويحشد كل قواه وكأنه يصعد عروق اصابع رجليه الى عينيه الخامدتين ، عساه يرى ، ما كان يرى : خضرة الاشجار ، وزرقة السماء ، وشفافية المياه ، وحمرة عرف الديك ، وبياض الحليب البيض ، وشقرة السنابل ، ووشم الحجال والارانب .

كما اعتاد ان يرى هذه الالوان بسهولة يريد ان يتغلب على ظلمته بما أوتي من قوة ليراها

« بو سملان » ابتلعها الظلام بشراسة ، وابتلع ما فيها بدون مضغ . ليل متحرك خائر يمشي متعثرا في سرداب ظلام، ماكر ، زائغ ، باحثا عن عينين من خشب — عن عكاز من اصالة ونبل الخشب ، يهديه ، يقيه العثرات، والسقطات ، يتلمس به الاشياء ويتحسسها ..

لا قمر ، لا نجم لا شعاع ، في سماء هذا الليل الأليل ..

يمد عينيه الخشبيتين ، يتعلق بهما ، يريد ان يلمس زرقة الفجر ، وشقرة الضحى ، وخضرة القصب ..

الالوان زاغت عنه، خانته .. الفراشة ، النحلة ، العقرب ، الجدجد النملة .. الوانها اختلطت في ذاكرته ، فكونت الوانا اخرى بعيدة عن واقعها .

يدعو عكازه ، فيهفو اليه طيعا رحيما ، ويقوده الى اصواب القرية .

يقوده الى صياح الديك ، وثناء الشاة ، وخوار البقرة وزغردة الطير ، وطنين النحل ، ودبيب الخنفساء ، ورنة الدلو على حافة البئر ..

★ ★ ★

«عبد البصير» ينفذ عزمته..

عكازه يعرف الطريق الى المدينة ، لا يحتاج الى دليل ، سيدخل «تطوان» سيدخلها راكبا صهوة عكازه الامين ..

« تطوان » النور ، والمستشفى والطبيب ، والدواء والمأوى..

دروب « تطوان » تنقط ، تخطط يكتب العكاز في ارضها برحيق القسوة ابجدية ضريره مريره ..

يفتح له الزحام ، يعرفه على المدينة ، على اصواتها ، على منعطفاتها ، على مقاعدها العمومية ..

من درب الى درب ومن حي الى آخر يقوده أصوات يسمعها لاول مرة ..

أصوات غريبة لم يعهدها في القرية ..

أصوات لا تشبه الحفيف ، ولا الخوار ولا الطنين ، ولا صياح الديك ، ولا صهيل الفرس ..

أصوات ما أغربها !

.. يريد ..

يريد معرفة مصدرها يريد

يريد ذلك بكل جارحة من جوارحه المظلمة ، يمد الى الاصوات عكازه ، يقتحمها ، بشوق ملحاح يقتحمها .. فيقع العكاز على عجلة دراجة واقفة ، أو عتبة حانوت او صلابة جدار ، فتقع ضربة العكاز قاسية على فتحتين مستورتين مغمضتين خامدتين ، تقولان :

— من هنا مر موكب النور بالوان : اشجاره وسمائه ، وطيوره ، وانهاره ، ونجومه ، واقماره يغني في شبابه الحياة، بغتة أجهضت .

بغتة ، يقف « عبد البصير » وكأنه سمر في الارض ..

كان جالسا على مقعد خشبي بجوار « تربيعة الكوزة » والى جانبه عكازه وهما يستريحان :

— أين عكازي ؟ .. أين

ويخرج السؤال المعضل فحمتين باردتين مرتعشتين من الثغرتين الخامدتين .

— اين عكازي ؟ .. عيناي يا الله ، أين هما ؟

« مصطفاوي » اين أنت .. اجبني أين أنت .. ؟

من أبعدك عني ؟ من سرقكنزي ، لا أريد بك بديلا .. ويأتيه صوت من بعيد .. صوت ينادي في الاسواق :

— من عثر على شيء ثمين وابرزه ، فله مكافأة .. يتلاشى ، يجمد صوت المنادي (البراح) في اذني «عبد البصير» لا يقول له شيئا ..

ويمضي وحيدا في الزحام ، يتلمس الجدران بأصابعه المرتعدة اليابسة ،

مرة يعثر ومرة يصطدم ، ومرة يسقط في حفرة وحل .. يمضي سائلا ، باحثا في الزحام ..

والناس يمضون معه كل احد يبحث عن شيء .. « عبد البصير » يمضي باحثا عن عكازه عن عينيه الخشبيتين.

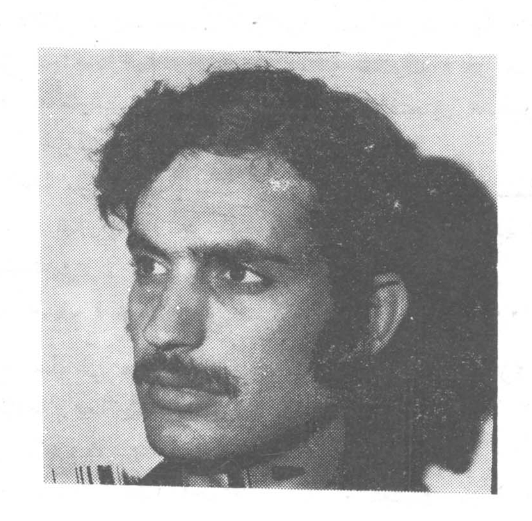
المغرب العربي — محمد الصباغ

مع ابن زيدون

في ليلته الأولى في السجن

بقلم

احمد دحبور



بدأت ليلتك الاولى مع الليـل ،

فهل اعددت أحلامك ؟

هـل عددت آلامك ؟

أم اطبقت عينيك على وقع السكون ؟

وحدك الان فقل ما شئت وأكتم ما تشاء

لن تقاضيك هنا الظلمة ،

والزنزانة الخرساء لا تشمت ،

فاشرح لب اسرارك ،

وافتح كل اسفارك ،

لكن لا تبع قرطبة الثورة بالدمعة ـ

لا تشـك .. ،

وحـاذر ان تهون

لك ان تضحك أو تغضب ،

ان تطرب أو تبكي ،

لك الغبطة والحزن ،

لك السجن ،

وعصفور يخوض الافق لا يتبعه الغاوون والواشون

ان فاوضته فاض الغناء :

يجرح الدهر ويأسو الفقراء

ما تغيرت ،

وغيرنا اغانيك ،

فهذي محنة لا تقبل الشكوى ، ولا يقوى عليها الشعراء الطيعون

كل من احببتهم ضاعوا ،

أو ارتـدوا ،

أو الاعباء لم ترحم فناءوا
ـ اينها ولادة الشعر ؟
ـ هبــــاء
ـ اينها ولادة القلب اذن ؟
ـ في شارع الليل الحزين
مكنت عاشقها من صحنها فاحتفلوا ،
لكن حصنا واحدا لم يكفهم فاقتتلوا ،
ثم اتوا من صحنها للتو عطشى جائعين
هكذا اضحى التنائى من تدانينا بديلا
وتناوبنا شريدا واسيرا وقتيلا
فلمن تشكو اذن ؟
قرطبة مهجورة ،
عشاق ولادة مطلوبون ،
والتجار والمذياع والاتباع يسرون ،
من الجند الى المجد ،
لمن تشكو اذن ؟
دهرك سيف بيد الفجار والسيف يجول
وعلى مقربة من طعنة طائشة يعلو الغناء :
يجرح الدهر ويأسو الفقراء
كيف يأسو الفقراء ؟
لو تعرفت عليهم في البراري والمجاعات وفي
عرى السهول

لو تحرقت الى وجبة لحم مرة ،
أو مرة اخفيت يوم العيد عن طفلك
لو فارت عليك الشمس في الحقل ،
ولو دخت من الشغل على كسارة الصخر ،
ولــــو ......
كنت اذن تدري معي ـ
كيف يفت المسك في التراب فلا يوطا ،
ولكن يحقن الارض بأسرار الفصول
وأنا ادري من النار اذا الحرب تصول
أنا أدري من يرد الدهر بالسيف ،
ومن يمشي على الجمر ،
وادري ان من أدعو يجيئون ،
كما ، من قبل ، جاءوا
فلمن تشكو اذن والسيف مشهر
ليس يجديك البكاء
ليس يجديك ابن جهور
انني خلفته بين اماء القوط يسكر
وترنمت عـلى جرحـى ، فلـم تصـغ ،
وواتاني الغناء :
يجرح الدهر ويأسو الفقراء
يجرح الظلم ويأسو الفقراء .

(أحمد دحبور)

مبنى الرسالة في نثر ابن زيدون وشعره

الدكتور ألبير مطلق

عندما تولى ابن زيدون الكتابة في حضرة المعتضد كان أهل شرق الاندلس يقولون ، « تأتي من اشبيلية كتب هي بالمنظوم أشبه منها بالمنثور » . ان جانبا من هذا التشابه بين نثر ابن زيدون وشعره هو الذي سيكون موضع الاهتمام في هذا البحث .

برزت في شعر ابن زيدون ظاهرة هامة ، تبدت في عدد من أغراضه الشعرية ، تلك هي ظاهرة الرسالة . ففي المرحلة التي تلت ابتعاد ابن زيدون عن ولادة كان الشاعر أسير السجن ، وأسير نكسة الحب المضطرب ، فكانت الوسيلة التي يعبر فيها عن عواطفه في اطار هذين الاسرين الرسالة : النثرية والشعرية . ولقد استمر وقع الاسر النفسي عليه فترة ، بعد خروجه من السجن لذلك نراه من وراء المسافات يكتب رسائل — قصائد محددة المعالم مرتبة الافكار ، متراوحة بين الاعتدال والثورة ، مزودة بقوة الانتقاء اللفظي ، وحلاوة الجرس الموسيقي . يشير في احدى قصائده ، التي وجهها من السجن الى أبي الحزم بن جهور ، الى كثرة رسائله . قائلا :

أفي العدل ان وافتك تترى رسائلي

فلم تترك وضعا لها في يدي عدل

على أن دافعا آخر هاما حفزه على نظم القصيدة — الرسالة ذلك هو تعلقه بعمله الديواني ، وحماسته لكتابة الرسائل . لقد كان ابن زيدون « كاتبا » ناجحا في رسائله وفي قصائده . ولعل حماسته لكتابة الرسائل لم تكن بسبب ميله الى ذلك العمل فحسب . وانما بسبب ما كان للكتابة من أهمية في عالم الملوك والامراء . وكان ابن زيدون محبا لهذا العالم ، فاستعان بالكتابة لتثبيت مواقعه فيه .

يقول ابن بسام : « وصرفه — أبو الوليد بن جهور — في السفارة بينه وبين رؤساء الاندلس فيما يجري بينهم من التراسل والمداخلة ، فاستقل بذلك لفضل ما أوتيه من اللسن العارضة ، فاكتسب الجاه والرفعة وفي سبيل الكتابة الديوانية ، وطمعا في أن يتولى أمر الوظيفة التي تتيح له الاطلاع على أسرار الدولة والتقرب من رجالها تورط في عدد من الخصومات مع الكتاب الذين سبقوه في الكتابة المدولة العبادية . حدثت بينه وبين علي بن غالب ابن حصن وزير المعتضد وكاتبه خصومة ، انتهت بهلاك ابن حصن ، يقول ابن بسام ، « ولم يزل أبو الوليد يطرق ويحلم ، ويسدي في أمره ويلحم ، وابن حصن يغتر ويقدم ففاز ابن زيدون بحلمه وتوقره ، وهوى نجم ابن حصن بين اغتراره وتهوره ، فزلت قدمه ، وطاح دمه » . غير أن المعتضد خيب أمل ابن زيدون وعهد بمنصب الكتابة الى ابن محمد عبد الله بن يوسف بن عبد البر . ولكنه غضب عليه بعد حين وعزله وكاد أن يفتك به ، ولا يستبعد أن يكون لابن زيدون يد في هذا الشأن . فقد استفاد من غياب ابن عبد البر ، ووفق في أن يجمع بين يديه الوزارة والكتابة .

على أنه مهما يكن من سبب تعلق ابن زيدون في عمله الديواني ، فقد برع فيه براعة اعترف له بها الاقدمون ، فقال ابن بسام ، « وقد أخرجت من رسائله التي — اخرست السنة الحفل ، واستوفت أمد المنطق الجزل ، ما يسر الادب ويصورها ، ويستخف الالباب ويستطيرها » .

على استخدام القصائد — الرسائل لم يكن ، في ذلك

العصر ، وقفا على ابن زيدون • ويبدو أن ذلك كان اتجاها عاما ،استطاع ابن زيدون أن يطوره وأن يبرع فيه • وقد عرف ذلك الاتجاه ، عند الذين كانوا يحيطون بالشاعر نفسه ، وعلى رأس هؤلاء ولادة بنت المستكفي ، يروي ابن زيدون أن ولادة كتبت اليه :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي

فاني رأيت الليل أكتم للسر

وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا

وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسر

وفي الاخبار ما يشير الى أن التخاطب بين ابن زيدون وولادة ، كان يجري أحيانا عن طريق المراسلات الشعرية• وبعض تلك المراسلات جرى على ما يبدو ، حين كان العاشقان يقيمان في مدينة واحدة • ولعل تلك العادة ناشئة من أن للشعر مفعولا قويا في نفوس الناس يفوق مفعول الكلمة التي تبث مشافهة ، مع أن ابن زيدون يبدي الضجر من المراسلة ، ويتمنى في احدى مقطوعاته أن يعبر عن شوقه بلسانه •

متى ينوب لساني في شرحه عن كتابي ؟

غير أن هذه العلاقة بين الشعر والنثر لم يكن يحس بها أهل المغرب وحدهم فقد رأينا ابن طباطبا يعتبر أن الشاعر يبني أفكاره أولا على النثر ثم يعد لها ما يلبسها اياه من الالفاظ التي تطابقها ، والقوافي التي توافقها ، والوزن الذي يناسبها • وهو يرى ، كذلك ، أن تحرر الشعر الجيد من الوزن لا يفقده جماله يقول : « فمن الاشعار ، أشعار محكمة متقنة أنيقة اللفظ عجيبة التأليف• اذا نقضت وجعلت نثرا لم تبطل جودة معانيها ، ولم تفقد جزالة ألفاظها » بل ان ابن طباطبا يجد علاقة ليس بين الشاعر والناثر بعامة فحسب بل بين الشاعر وكاتب الرسائل ، يقول : « ويسلك ـ الشاعر ـ منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم ، وتصرفهم في مكاتباتهم ، فان للشعر فصولا كفصول الرسائل ، فيحتاج الى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة ، فيتخلص بألطف تخلص وأحسن حكاية ، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله ، بل يكون متصلا به وممتزجا معه •

ومن خلال ما يكتبه ابن زيدون نفسه يمكن الاستنتاج أن الشعر عنده يتم الرسالة النثرية ، ويضفي عليها طابعا من الاناقة • وهو لذلك يلحق بعدد من رسائله النثرية الهامة قصائد ، ويعلل ذلك في أكثر الاحيان تعليلات تغلب عليها الاناقة اللطيفة والمجاملات الحضرية • فقد ألحق برسالته الى المظفر سيف الدولة أبي بكر بن الافطس أمير بطليوس قصيدة مطلعها :

لبيض الطلى ولسود اللمم

بعقلي ـ مذ بان عني لمم

معللا ذلك بقوله : « ولما اطرد هذا النثر لحسن اتساقه ، ولذ مساقه ، هزت النظم أريحية جذب لها بعنانه ، وعارضه بها ميدانه ، وأبت أن ينفرد النثر بلقاء الحاجب ومشافهته ، ويستبد بأن تلمح غرته ، وتخدم بالحضور حضرته ، فاثبت منه ان انعم عند تصفحه بالصفح عن الزلل يعرض فيه والخلل يبدو منه ، وصل النعمة بمثلها ، وقرن العارفة بشكلها • وكتب ابن زيدون بعد فراره من السجن وعودته متخفيا الى الزهراء رسالة وجهها الى أستاذه أبي بكر مسلم محمد بن أحمد بن أفلح النحوي ، وألحق بها قصيدة مطلعها :

شحطنا ، وما للدار ناي ولا شحط

وشط بمن نهوى المزار ، وما شطوا

وفعل مثل ذلك في رسالته الجدية ، فألحق الرسالة بقصيدة مطلعها :

الهوى في طلوع تلك النجوم

والمنى في هبوب ذاك النسيم

معللا ذلك بقوله : « ولما توالت غرر هذا النثر واتسقت درره ، فهز عطف غلوائه ، وجر ذيل خيلائه ، عارضه النظم مباهيا بل كايده مداهيا ، حتى أشفق من أن يعطفك استعطافه ، ويميل بنفسك ألطافه ، فاستحسن العائدة منه ، واعتد بالفائدة له • وما زال يستكد الذهن

العليل ، والخاطر الكليل ، حتى زف اليك منه عروسا مجلوة في أثوابها ، منصوصة بحليها ، وملابسها » ٠

ولعل أشهر القصائد ـ الرسائل التي نظمها ابن زيدون هي الى جانب القصائد التي ألحقها برسائله النثرية:

أ ـ قصائده الى ولادة :

أضحى التنائي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والافق طلق ومرأى الارض قد راقا

لئن قصر اليأس منك الامل
وحال تجنيك دون الحيل

ب ـ قصيدته الى ابن عبدوس :

اثرت هزبر الشرى اذ ربض
ونبهته اذ هدا فاغتمض

ج ـ قصيدته الى صديقه ابن حفص بن بدر الاصغر، ووجهها اليه من السجن :

ما على ظني باس يجرح الدهر ويأسو

د ـ قصيدته الى أبي عبد الله بن القلاس البليوسي :

اصخ لمقالتي واسمع وخذ فيما ترى أو دع

وتتفق هذه الرسائل الشعرية والرسائل النثرية لدى ابن زيدون في طبيعة الموضوعات التي عولجت فيهما ، وأحيانا في الافكار والتفاصيل ٠ فرسالته الى المظفر بن الافطس كانت في الشفاعة لصديق ، وكذلك كانت قصيدته الملحقة بتلك الرسالة : يقول في الرسالة « ورأيت من شكر يد العلياء فيما حثني اليه ٠٠ ان استفتح باب المكاتبة بالشفاعة » ٠ ويقول في القصيدة :

ومستشفع بي بشرته على ثقة بالنجاح الاتم

ورسالته الجدية كتبها في السجن مستعطفا أبا الحزم مذكرا اياه بخدماته السابقة واخلاصه له ، وكذلك فعل في قصيدته التي الحقها بالرسالة ٠ وقد هيمن على تلك الرسالة الجو العام الذي كان يحيط بتفكير ابن زيدون طوال اقامته في السجن ، لذلك يمكن مقارنتها ليس فقط بالقصيدة الملحقة بها ، وانما كذلك بسائر الشعر الذي كتبه في تلك الفترة ٠ من ذلك أنه كان دائم الشكوى من الظلم الذي لحق به ، ويرى انه حتى الذين يخالفون يأتي يوم ويتمتعون بالعفو ، فكيف يحرم من ذلك ، وهو الذي لم يرتكب ذنبا يذكر بتلك الذنوب الكبيرة في التاريخ ، والتي يكرر ابن زيدون ذكرها في شعره وفي نثره ٠ من ذلك قوله في الرسالة الجدية ٠

« حنانيك ، قد بلغ السيل الزبى ، ونالني ما حسبي به ، وكفى ٠ وما أراني الا لو أني أمرت بالسجود لآدم فابيت واستكبرت ٠٠ وقدت الفيل لابرهة ، وعاهدت قريشا على ما في الصحيفة ، وتاولت في بيعة العقبة ، ونفرت الى العير ببدر ، وانخذلت بثلث الناس في يوم أحد ٠ لكان فيما جرى علي ما يحتمل أن يسمى نكالا ، ويدعى ولو على المجاز ، عقابا » ٠ وبهذا المعنى يقول في قصيدة له نظمها في السجن مدافعا عن نفسه :

ولو انني واقعت عمدا خطيئة
لما كان بدعا من سجاياك ان تملى

فلم استثر حرب الفجار ولم اطع
مسيلمة اذ قال : اني من الرسل

وبين الرسالة الجدية وقصائد الاستعطاف التي ارسلها من السجن بعض وجوه الاختلاف ٠ من ذلك ان في الرسالة الجدية حشدا للاسماء والاحداث ، ومبالغة في الاقتباس والتضمين ، ومترادفات ، وهذه أمور لا تتحملها القصائد ٠

ومن ناحية أخرى تتفق الرسالة مع القصائد في ان فيها جميعا ضربا خفيا من التأنيب ، يصوغ ابن زيدون ذلك في أكثر الاحيان بأساليب لينة ، وأن فيها الكثير من التفاخر والدلال بخدماته ، وانها تنبض بعواطف قوية ، وتعكس تجربة غنية ، وان أسلوبها يتنقل بين الغائب والمخاطب ، وضرب الامثال والاستشهاد بالماثور ، والضراعة والاعتذار ، واليأس والرجاء ، والتصريح والتلميح ، والى هذا أشار أحمد ضيف في كتابه « بلاغة العرب في الاندلس» بقوله : « أسلوبه في الشكوى والاستطاف واحد في نظمه ونثره . وما أشبه قصائده في ذلك وما فيها من المعاني برسائته الجدية » وما قيل عن الرسالة الجدية يقال أيضا عن الرسالة الهزلية ، فانها برغم ما فيها من السخرية والتهكم الذي أورده ابن زيدون على لسان ولادة ، تحمل عواطف عنيفة طاغية وتعبر عن مرارة عميقة ، كما أن فيها ما في الرسالة الجدية من تفاخر وذكر للاسماء

الحوادث التاريخية ، واقتباس وتضمين .

ومن الخصائص التي تميز القصيدة ـ الرسالة انها تتخذ سياقا عاطفيا وفكريا محددا بحدود الرسالة . لذلك لا نجد فيها وصفا للمرأة ، كما لا نجد فيهـا كلفا بالمناجاة الذاتية ، ونلاحظ ان همها الاقناع لذلك تقوم في عدد من جوانبها على الجدل ، وان فيها جوانب خفية تقوم على التلميح وتظهر فيها العواطف المكبوتة من وراء الالفاظ ، اذ يكون الشاعر منشغلا بالمدارة ، مضطرا الى كبح لسانه أمام الفريق الآخر .

وعندي ان من الامثلة الممتـازة على القصيـدة ـ الرسالة التي تمثل الخصائص السابقة ، قصيدته التـي مطلعها :

لئن قصر اليأس منك الامل وحـال تجنيك دون الحيل

في هذه القصيدة يستخدم ابن زيدون وسائل الاقناع دون تهجم واتهام صريح . يلوم دون أن يحرج ، لانه يريد أن يربح جولة لا ان ينتقم . يبدأ قصيدته بتصوير صراع قائم بين اليأس والامل ، انتهى بسبب تجني المرأة، بانتصار الامل ، ولكنه خسر لان المرأة لبت صوت الحسود وصدقت اليأس ، لقد حارب في سبيل انتصار الامل ، ولكنه خسر لان المرأة لبت صوت الحسود وصدقت زور الاعـداء . ومع ذلك :

فان زمام الهوى لن أزال ابقيـه حفظا كما لم ازل

في هذه المقدمة يعطي ابن زيدون البراهين على انه لا يلام لما وقع بينهما ، ويجادل ، ولكنه مع ذلك يتهم المرأة بانها هي التي تجادل :

ومهما هززت اليك العتاب ظاهرته بـين ضروب العلل

كأنك ناظرت أهـل الكلام وأوتيت فهمـا بعلم الجدل

والجدل صـناعة ابن زيدون استخدمه في قصـائد الرسائل ، كما استخدمه بتوسع في رسائله النثرية . وكان من وسائل هذا الجدل انه يسأل المرأة سؤالا مباشرا عن سبب هجرها له :

علام اطبتك دواعي القلى؟ وفيما ثنتك نواهي العذل؟

ولكي يكون لهذا السؤال وقع الافحام لا يترك ابن زيدون للمرأة مجالا للجواب ، بل يجيب عنها ، ويعـدد الجهود التي كان يبذلها ليكون محبا خفيف الظل ، لبقا ، يقول :

الـم الـزم الصبر كيما اخف ؟
الم أكثر الهجر كـي لا أمـل ؟

الـم ارض منـك بغـير الرضى
وأبدي السرور بما لم أنـل ؟

الــم اغتفر موبقـات الذنوب
اعمـدا أتيت بهـا أم زلـل ؟

ويلاحظ ان شعره هنا أشبه بشعر الشعراء العذريين حيث ، تذوب شخصية الشاعر ولا تبقى الا رغبات المحبوب. ولكن ابن زيدون اجرأ من العذريين ، فانه يلصق بالمرأة موبقات الذنوب ، بل يلمح الى انه لا يستبعد أن تكون المرأة قد ارتكبت تلك الموبقات عمدا ، فهو يلين ويشتد ، وحين يشتد يلمح تاركا لنفسه مجالا للاعتذار . وفي هذا جدل بعيد عن اسلوب المناجاة الذاتية التي ينطلق فيه الشـاعر على سجيته ، غير مقيد بحدود الآخرين ، كما ان في هذا وصفا للعلاقة بين الرجل والمرأة وطبيعة الروابط العاطفية، ونظرة الشاعر الى تجربة الحب ، وليس فيه وصف للمرأة عينها . ويبرع ابن زيدون في هذا الاسلوب حتى انه في مجال الدفاع عن نفسه ينفي ان يكون قد أساء اليها ، حتى ولا في الظن :

ومـا سـاء ظنـي في ان يسـيء
بي الفعـل حسنك ، حتى فعـل

وهــذا أسلوب جدلي اقناعي يعبر عن الدهشة ، ويبعد ، في رأيي ، عن الديباجة البحترية التي شهر بها ابن زيدون .

ومن القصائد ـ الرسائل قصيدته المشهورة التـي مطلعها :

اضحى التنائي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيـانا تجـافينا

وهي كالقصيدة السابقة تحمل الخصائص نفسها ، ويظهر فيها ابن زيدون كالمحامي الذي يدافع عن نفسه مظهرا أنه صاحب حق ، ولكنه لا يوجه اتهاما مباشرا الى المرأة ، بل يستنتج ذلك من مجمل الموقف الذي يعرضه الشاعر . وتختلف هذه القصيدة عن سابقتها في ان ابن زيدون ينطلق فيها على سجيته ، مستخدما الوان الاساليب،

ومنوعا بين المشاهد ، ومجندا قدراته الشعرية فكأنما أراد أن تكون القصيدة دامغة مذهلة ، أو كأنه أرادها ان تكون رمزا دائما للمحب الصابر ٠

ويمكن القول ان الجامع بين هذه القصائد، والقصائد الملحقة برسائله ، والرسائل نفسها ، مؤثرات أربعة :

أولا ــ شعور بالظلم ، واحساس مرهف جعله يحس ان الجو حوله يعبق بالمكايد ٠ ولا شك انه كان للظروف

القاسية التي مر بها في تجربة السجن ، وللحياة الشاقة التي يعيشها الذين يترددون على البلاط ، والمؤامرات التي

تدور في هذا المحيط ، اثر بالغ في ترسيخ هذا الشعور في نفس ابن زيدون ترسيخا عميقا ٠ وفي رسائله يأتي هذا

الشعور صريحا غير مغلف بالخيال الادبي ، يقول « وفي علمك اني سجنت مغالبة بالهوى ، وهو أخو العمى » ٠

ويقول أيضا : « ٠٠٠ فكيف لا وذنب الا نميمة أهداها كاشح ، ونبأ جاء به فاسق ، وهم الهمازون المشاؤون

بنميم » ٠ ويتيح له الشعر مجالا أوسع للتعبير عن هذه المعاني ، ولعل معانيه في الشعر ان تكون أقل دقة ووضوحا

ولكنها أكثر ايحاء ، يقول في قصيدته المشهورة : « ما على ظني بأس » ٠

أنا حيران وللامر وضوح والتباس

ما ترى في معشر حالوا عن العهد وخاسوا

اذؤب هامت بلحمي فانتهاش وانتهاس

كلهم يسال عن حالي وللذئب اعتساس

واذا كان ابن زيدون في هذه القصيدة ينظر الى

الناس من حوله كذئاب تنهش لحمه ، فانه في قصيدته « اصبخ لمقالتي » ينظر اليهم كعقارب لا تتوقف عن لسعه :

تدب الي بما تألو عقارب ماتني تلسع

وفي القصيدة الملحقة برسالته الى ابن افلح النحوي مثل هذا الشعور بالمكايدة يقول :

بلغت المدى اذ قصروا فقلوبهم
مكامن اضغان اساورها رقط

يولونني عرض الكراهة والقلى

وما دهرهم الا النفاسة والغمط

الا هل أتى الفتيان ان فتاهم

فريسة من يعدو ونهزة من يسطو

ثانيا ــ الاعتداد بالنفس ٠ وقد اتخذ هذا الاعتداد شكلين : التعالي ، وكان ذلك في المرحلة التي سبقت هزيمته

امام ابن عبدوس ، ودخوله السجن ٠ في هذه المرحلة يتحدث عن نفسه على لسان ولادة التي توجه كلامها الى ابن عبدوس ، فيقول : « ولعلك انما غرك من علمت صبوتي

اليه ، وشهدت مساعفتي له ، من اقمار العصر ، ورياحين المصر ، الذين هم الكواكب علو همم ، والرياض طيب

شيم ٠ » وفي هذه المرحلة أيضا يخاطب ابن عبدوس بقوله:
اثرت هزبر الشرى اذ ربض ونبهته ، اذ هدا فاغتمض

حذار ، حذار فان الكريم اذا سيم خسفا ابى فامتعض
فان سكون الشجاع النهوس ليس بمانعه ان يعض

وبمثل هذه الروح يخاطب منافسه على قلب ولادة :

ابا عبد الله ابن القلاس البطليوسي ، قائلا :

وكائن رامت الايام ترويعي فلم ارتع
اذا صابتني الجلى تجلت عن فتى اروع

والشكل الثاني الاعتداد بالنفس تبدى في المرحلة التي بدأت بسجنه ، وهنا برز الاعتداد بالنفس مغلفا

بالمرارة والايلام ، ولذلك تحول من التعالي الى الانتفاض والتحدي والى تعزية النفس برد أسباب الهزيمة الى افعال

الآخرين والى نزوات الدهر العشوائية ٠ فسقوطه في السجن

لم يكن عن قلة احتراس ، وانما هي طبيعة الدهر المتقلبة التي لا يفيد معها الناس :

ولقد ينجيك اغفال ويرديك احتراس

ولكم اجدى قعود ولكم اكدى التماس
وكذا الدهر اذا ما عز ناس ذل ناس

ويؤكد ابن زيدون هذا المعنى في قصيدة أخرى ، يقول :

ألم تعلم بأن الدهر يعطي بعد ما يمنع
وان السعي قد يكوى وأن الظن قد يخدع
وكم ضر امرءا أمر توهم انه ينفع

وفي رسائله يردد معنى قريبا ، يقول : « فلا غرو ، قد يغص بالماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمني في أمنيته ،

والحين قد يسبق جهد الحريص » ٠ ويظهر اعتداد ابن زيدون بنفسه في شكل آخر ، حين يتعزى موهما نفسه ان المصائب تصيب العظماء فقط :

ما ترى البدر ، ان تاملت ، والشمس ، هما يكسفان دون النجوم •

وهو الدهر ليس ينفك ينحو بالمصاب العظيم نحو العظيم وان المسك يفت في التراب في غلة من الزمن :

فتأمل كيف يغشى مقلة المجد النعاس
ويفت المسك في الترب فيوطأ ويداس

وأخيرا يتجلى اعتداده بالنفس بتجلده ، وصبره ، وايمانه بأن الحال ستتغير ، وكان في هذا الاحساس ردا على اليأس الذي يحيط به ، أو كأنه محاولة لرد كيد الشامتين الذين يسعدهم أن يروه مهدما ، يقول :

انقسا الدهر فالماء من الصخر انبجاس
ولئن أمسيت محبوسا فللغيث احتباس
يلبد الورد السبنتى وله بعد افتراس

ويعبر عن هذا التجلد في رسالته الجدية ، بقوله : واني لاتجلد،وأرى الشامتين أني لريب الدهر لا اتضعضع•

ثالثا ـ ارتباط بالماضي : وفي ذلك يقول احمد ضيف • وأقرب عبارته وصولا الى القلوب بكاؤه على الماضي ، والتلذذ بذكره ، وما كان فيه من النعيم • ولقد كان ينظر الى ايامه الماضية فيحن اليها حنينا مؤلما ، فاذا قرأت شعره في ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على اطلال سعادته البالية ، فبكى وبكيت معه ، « والذكريات السعيدة عنده تستدعي الحزن لانها انقطعت بفعل ظروف قاهرة ، يقول :

حالت لفقدكم ايامنا ، فغدت
سودا ، وكانت بكم بيضا ليالينا

اذ جانب العيش طلق من تألفنا
ومربع اللهو صاف من تصافينا

واذ هصرنا فنون الوصل دانية
قطافها ، فجنينا منه ما شينا

ليسق عهدكم عهد السرور فما
كنتم لارواحنا الا رياحينا

ويتمثل الحنين الى الماضي في مظهرين رئيسيين :

الاول : حب الوطن ، وابن زيدون يؤكد على هذا المعنى مرارا ، والوطن عنده المكان الذي نشأ فيه وتعود عليه ، يقول : « غير ان الوطن محبوب ، والمنشأ مألوف ، واللبيب يحن الى وطنه حنين النجيب الى عطنه ، والكريم لا يجفو أرضا بها قوابله ، ولا ينسى بلدا فيها مراضعه » • ويقول : « ونظرت في مفارقة الوطن ، والبين عن الاحبة ، فتبين لي ان احساس نفسي بايناس أهلي ، وقطعها في صلة وطني ، غبن في الرأي وخور في العزم ، ووجدت الحر ينام على الثكل ، ولا ينام على الذل ، واذنت الى قولهم ليس بينك وبين البلاد نسب ، فخيرها ما حملك واذا نبأ بك منزل فتحول » • يشير ابن زيدون في هذا النص الى انه يؤثر الغربة على المذلة• ولكنه حين اغترب رأي ان « الجلاء أخو القتل والغربة أحد السبائين » •

والثاني ـ تعلقه بالطبيعة وأوجه بها ، بحيث صارت الازهار ، وأوقات الليل والنهار ، والنسيم والرياض جزءا من حديثه عن ذكرياته • ففي قصيدته « انى ذكرتك » ترد الالفاظ التالية : الافق ، وجه الارض ، النسيم ، الاصائل ، الروض ، الماء ، الزهر ، الندى ، الورد ، المنابت ، الضحى ، النيلوفر ، الصبح ، اليوم ، الى جانب الصفات التي الصقها بهذه الاسماء • ومن امثلة تعلقه بالطبيعة انه كان يشرك الطبيعة في همومه وذكرياته ،لذلك نراها ، تعتل اشفاقا لحاله وتبكي لما به :

وللنسيم اعتلال في اصائله
كأنما رق لي ، فاعتل أشفاقا

كان اعينه اذ عاينت أرقى
بكت لما بي ، فجال الدمع رقراقا

وفي ذكر ابن خاقان لمناسبة هذه القصيدة ما يشير الى تنبهه الى دور الطبيعة في اثارة ذكريات ابن زيدون ، يقول: « كر الى الزهراء ليتوارى في نواحيها ، ويتسلى برؤية موافيها ، فوافاها والربيع قد خلع عليها برده ، ونثر سوسنة ووردة ، واترع جداولها ، وانطق بلابلها ، فارتاح ارتياح جميل بوادي القرى ، وراح بين روض يانع وريح طيبة السرى ، فتشوق الى لقاء ولادة وحن ، وخاف تلك النوائب والمحن ، فكتب اليها يصف فرط قلقه ، وضيق امده اليها وطلقه ، ويعاتبها على اغفال عهده ، ويصف حسن محضره بها ومشهده » •

رابعا ـ حب يسمو ، حتى ليترفع عن نقائص المحبوب وجرائره ، وعن المحبوب نفسه احيانا ، فيكون الحب المجرد عن كل اعتبار • انه الحب المثالي الذي يمثل صفاء الحب في كل وقت• واعتقد انه ينبغي النظر الى هذا الحب من خلال نظرتنا الى القصيدة ـ الرسالة التي تهدف الى الاقناع وكسب التأييد • كما أرى انه لا يجوز الحكم على شعر ابن زيدون كله في الحب ، من خلال قصائده الصافية المعدودة • قصائده في ولادة تنتمي الى مرحلة معينة ، انتهى

بعدها ذكر ولادة ، وبقيت الذكريات . وابن زيدون نفسه يقول : « كنت في ايام الشباب ، وغمرة التصاب ، هائما بغادة ، تدعى ولادة » . وفي ذلك ما يشير بوضوح الى ان مرحلة الحب انتهت مع انتهاء ايام الشباب وغمرة التصابي.

ويلاحظ ان الباحثين يميلون ، عادة ، الى جعل ابن زيدون موحدا في حبه ، بل يصفونه في تهيامه وترداده لاسم محبوبته حتى النفس الاخير ، مجنونا من مجانين العذريين . وفي هذا بعد عن وقائع حياة ابن زيدون الذي كان يأخذ حظه من الدنيا ، دون أن ينكر ذلك يقول :

قد علقنا سواك علقا نفيسا
وصرفنا اليه عنك النفوسا

ولبسنا الجديد من خلع الحب
ولم نأل ان خلعنا اللبيسا

وأرى أن العلاقة بين ابن زيدون وولادة قد انتهت مع المعركة التي نشبت بينهما . وختمت بالهجاء المتبادل ولا اعتقد أنه كان يمكن اعادة المودة بينهما بعد الشتائم المتبادلة بل قد صارت تجربة الحب عند ابن زيدون درسا يلقيه على الآخرين . يقول من قصيدته لابن القلاس ، منافسه في حب ولادة :

ولا تطع التي تغويك	فهي لبغيهم أطوع
ولاتك منك تلك الدار	بالمرأى ولا المسمع
فان قصارك الدهليز	حين سواك في المضجع

والعلاقة التي انتهت بين ابن زيدون وولادة . في رأيي، لم تكن العلاقة المادية فقط ، وانما العلاقة العاطفية ايضا . فبالنسبة لولادة اقامت على اخلاصها لابن عبدوس، الى آخر ايامهما ، كما يروي ابن بسام : وطال عمرها وعمر ابن عامر حتى اربيا على الثمانين ، وهو لا يدع مواصلتها ، ولا يغفل مراسلتها ، وتحيف هذا الدهر المستطيل حال ولادة ، فكان يحمل كلها ، ويرفع ظلها ، على جدب واديه ، وجمود روائحه وغواديه ، أثرا جميلا ابقاه ، وطلقا من الظروف جرى اليه حتى استوفاه . « واما بالنسبة لابن زيدون فقد نظم قصائد معدودات في ولادة ، وأغلب الظن عندي ان الذي اثاره الى كتابة تلك القصائد الرقيقة لم يكن الحب وحده ، وانما كان الحب جزءا من المأساة التي عاشها في المرحلة المضطربة التي بدأت بتدهور حاله مع آل جهور وانتهت بعودته الى قرطبة ، واتصاله بآل جهور ثانية ، وأغلب الظن ، أيضا ، ان ابن زيدون ترك ذكر ولادة نهائيا ، ولم يعد لها أثر في حياته منذ ان هاجر الى اشبيلية ليتصل بالمعتضد ثم بابنه المعتمد.

ان قصيدة « أضحى التنائي » وقصيدة « اني ذكرتك بالزهراء » وقصيدة « لئن قصر اليأس » قصائد لم يكن الحافز اليها الحب وحده ، وانما جو المأساة العام ، الذي كان ابن زيدون يعيش فيه ويحس انه أكثر حرية في تصويره والتعبير عنه من خلال قصائد الغزل وهذا هو الذي اعنيه بالحب المجرد السامي الذي يسيطر على الغزل في قصائد ابن زيدون الرسائل . فولادة ، في قصائده تلك ، هي ، بلا شك ، غير ولادة التي كان ابن زيدون قبيل ذلك يوجه اليها الشتائم والاهانات . ولادة هنا ترمز الى الحب ، الى المرأة ، ولكن ليس امرأة بعينها ، الى المرأة التي يريد خيال ابن زيدون ان تكون معه في ايام محنته الحب عنده هنا ملجأ ، وليس حاجة جسدية ، أو نزوة عاطفية . اليس غريبا ان اسم ولادة في هذه القصائد ـ الرسائل لا يذكر مرة واحدة ؟ الا اذا كان المقصود هنا الحلم ، وليس الواقع ، وانه لم ترد اشارة يمكن ردها الى الى ولادة الا في قصيدته اضحى التنائي ، حيث يقول :

ربيب ملك كأن الله انشأه
مسكا ، وقدر انشاء الورى طينا

ما ضر ان لم نكن اكفاءه شرفا
وفي المودة كاف من تكافينا

وبنهاية عهد المأساة ، وانضمام ابن زيدون الى بلاط العباديين انتهى الحلم ، انتهى الكابوس ، وبدأ الواقع ، وعندها زال خيال المرأة المثال ، وهبط ابن زيدون الى عالم الحكم مرة ثانية ، يعيش في ترفه ، ويتحمل مشقاته ، ويدخل في مؤامراته ، وينهب من ملذاته . أيمكن الادعاء في وسط مثل هذه الحياة ان ذكر ولادة لم يفارق لسان ابن زيدون ، وان اسمها لم يترك سمعه ، وانه ظل يلهج باسمها الى يوم الممات ؟ ان ما يذكره الباحثون من أن غزل ابن زيدون كله يدور حول ولادة امر بعيد كل البعد عن الواقع، وأحب ان أضيف ها هنا أن الشعراء في ذلك الوقت كانوا في كثير من الاحيان يحيون حياة تختلف عما يروونه في شعرهم. لقد كانوا يدعون انهم عفيفون ، يحاربون الشهوات ، بينما كانوا في حياتهم يلبون دوافع اجسادهم دون تحرج . وكما يقول احسان عباس . « أصبح الشاعر في هذا العصر .. يتخذ من التحدث عن العفاف ، أو عن التمكن من الشهوات،

مذهبا ادبيا دون أن يعبر ذلك عن حقيقة اخلاقية ماثلة في نفسه ٠ وممن سلك هذه الخطة ، فقسم شعره بين مذهبي العفاف والمجون ، الشاعر ابو جعفر احمد بن الاباز ، أحد شعراء دولة المعتضد فقد عبر عن القناعة في الحب في مقطوعات كثيرة » ٠

الى هنا رسمت صورة تحليلية للقصيدة ـ الرسالة في دوافعها وغاياتها ، ولا بأس من تبيان أوجه الاختلاف بين القصيدة العادية وبين القصيدة ـ الرسالة ـ بدراسة قصيدة من النوع الاول ، ولتكن قصيدة ابن زيدون التي مطلعها :

خليلي لا فطر يسر ولا أضحى
فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى ؟

نظم الشاعر قصيدته هذه اثناء توقفه في بطليوس في طريقه من قرطبة الى اشبيلية ، وهناك صرف العيدين وتشوق الى بلده ومحبيه وفي مناسبة هذه القصيدة يقول ابن خاقان ، بشيء كثير من الانشاء وحب الصنعة : واخبرني الوزير الفقيه ابو الحسن بن سراج ، رحمه الله ، انه (ابن زيدون ـ في وقت فراره اضحى غداة الاضحى ، وقد ثار له الوجد بمن كان يألفه والغرام ، وتراءت لعينه تلك الظباء الاوانس والارام ٠ وقد كان الفطر وافاه ، والشقاء قد استولى على رسم عافيته حتى عفاه ، فلما عاده منه ما عاد ، واعياه ذلك النكد المعاد ، استراح الى ذكر عهده الحسن ، وأراح جفونه المسهدة بتوهم ذلك الوسن ، وذكر معاهد كان يخرج اليها في العيد ، ويتفرج بها مع أولئك الغيد ، فقال ٠٠ « هذه القصيدة مناجاة ذاتية ، وليست خطابا لآخرين ٠ ولذلك يبدأها ابن زيدون بقوله : « خليلي » ، هي اللفظة التي يستخدمها الشاعر العربي عادة ، لاقامة حوار بينه وبين نفسه ٠ ولان الشاعر يخاطب نفسه فانه لا يحتاج الى اقناع الآخرين ، ولا يكون في موقف عرض قضية والدفاع عنها ٠ الشاعر في هذا النوع يكون أقرب الى العاطفة المتحررة من قيود الجدل ، المستغنية عن تزيين الامور أو تضخيمها، أو طمسها ، أو ادخال تعديل عليها يغاير ما في الصورة العالقة في قلبه ٠ في القصيدة ـ الرسالة يحس الشاعر ان عليه رقيبا ، وان الطرف الآخر سيحاسبه على كلماته ، لذلك نراه يعمل جاهدا لابعاد كل ما من شأنه اضعاف موقفه ، فاذا تحدث عن الحب فهو المحب الوفي ابدا ، وهو المتهم البريء ، الذي سيظل ، برغم ما اكتنفه من ظلم سوء فهم، مخلصا قانعا من الحب والاخلاص والوفاء ٠ في حين ان شاعر المناجاة الذاتية ، شاعر القصيدة ، غير محتاج الى كل ذلك ، فانه اذا ذكر لذته كانت تلك اللذة جزءا من الماضي السعيد ، وليست مرتبطة بقلبه اليوم الا برباط الذكريات العام ، الذي يجمع قلوبنا الى كل حادث عرفه ماضينا ، يقول ابن زيدون في متع الحب:

وأيام وصل بالعقيق اقتضيته
فالا يكن ميعاده العيد فالفصحا

وآصال لهو في مسناة مالك
معاطاة ندمان اذا شئت أو سبحا

معاهد لذات وأوطار صبوة
أجلت المعلى في الاماني بها قدحا

وكذلك الحال بالنسبة للمتع الاخرى ، غير متع الحب ، فشاعر المناجاة لا يشعر بأن ماضيه مستمر في حاضره ، انه ماض متع نفسه به ، وانقطع ذلك الماضي ، يقول :

مقاصير ملك أشرقت جنباتها
فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا

محل ارتياح يذكر الخلد طيبه
اذا عز أن يصدى الفتى فيه او يضحى
تعوضت من شدو القيان خلالها
صدى خلوات قد أطار الكرى ضبحا
ومن حمل الكأس المفدى مديرها
تقحم أهوال حملت لها الرمحا

وفي الامثلة التي ذكرت من قصيدة « خليلي » يلاحظ أن الحجاج وبالتالي الاقناع ، غير وارد ، وان الماضي تذكر وليس تدخلا ، وانه لايتحدث عن حب معين ، وان الشاعر يخاطب نفسه ٠ وفي ذلك خصائص تميز شعر المناجاة عن القصيدة ـ الرسالة ٠

وأخيرا يمكن القول أن القصائد ـ الرسائل التي بني عليها الجانب الاكبر من هذا البحث ، هي أجمل شعر ابن زيدون وأصدقه لقد انغمس الشاعر بالحياة السياسية، والمجاملات ولم يترك لنفسه مجالا يعبر فيه عن انفعالاته الصادقة ، الخالصة من كل قيد ، الا في حالات قليلة ، وأعتقد أن القصائد ـ الرسائل تستوعب أكثرها ٠ وأشير هنا الى بيتي ابن زيدون اللذين يتحسر فيهما على الوقت الذي قضاه في مديح أناس غير جديرين بالمديح حين كانت الظروف تجبره على الكسب :

قل للوزير وقد قطعت بمدحه
زمنا ، فكان السجن بعض ثوابي

لم تخط في أمري الصواب موفقا
هذا جزاء الشاعر الكذاب

الأصالة والمعاصرة في شعر الحصني •

• سمر روحي الفيصل •

لا أخفي على القراء أن أمورا عدة كانت تتراقص في ذاكرتي في أثناء عكوفي على دراسة ديوان « أمواج » ، منها معرفتي بذلك الرصيد الشعري الكبير الممتد على مدى سنوات طويلة لشاعرنا عبد الرحيم الحصني ، ومقدرته الشعرية ، وموقعه من الشعر السوري المعاصر •

وتجنبا لاي تدخل من أحد هذه المتراقصات آثرت قراءة الشاعر نقديا من خلال شعره • وأنتم تعلمون أن هذه القراءة لا تستطيع التوقف عند القصائد قصيدة قصيدة ، كما انه ليس من أهدافها روز الابيات بيتا بيتا ، وانما تهدف لان تكون قراءة حقة ينسلك فيها الخيط إثر الخيط ، والملاحظة إثر الملاحظة ، لتتجمع في نهاية أمرها في بؤرة واحدة متكاملة هي الشاعر في الديوان • وايضا ، اذا كان لي أن أعكس منطق القراءات النقدية فأقول انني سأحاول في الاسطر القادمة

الاشارة الى الاصالة والمعاصرة في شعر الحصني من خلال أمرين – أراهما هامين – هما: موسيقى شعره ، ومضمون هذا الشعر••
اذا كان لي ذلك فانني أرجو أن أوضح أن مرادي من الاصالة هو وعي الشاعر لكل ما هو ايجابي في الشخصية العربية ،

وموقع هذا الوعي من الواقع الحاضر الذي يعيشه وينظر منه الى المستقبل مما ندعوه معاصرة •

– ١ –

حين نتحدث عن موسيقى الشعر فنحن نريد عادة «الشكل» الذي يندرج فيه المضمون • هذا الشكل يأخذ عادة مناحي عدة لسنا في سبيل استقصائها الآن في الديوان الذي بين ايدينا ، ولذا فسنكتفي – في هذه العجالة – بالحديث عن الموسيقى الشعرية في شعر الحصني وما فيها من أصالة ومعاصرة •

في الديوان اثنتان واربعون قصيدة (في ١٢٣٥ بيتا) ، توزعتها أبحر شعرية خمسة :البسيط والطويل والكامل والرمل والخفيف • والملاحظ أن الشاعر يحب البحر **الاول** من

هذه الابحر (البسيط) ، ذلك انه قال فيه ثلاثا وعشرين قصيدة ، أي أكثر من نصف قصائد الديوان ، كما أن أبيات هذه القصائد جاءت أوفر عددا كما يدل على ذلك الاحصاء التالي :

البحر	عدد القصائد	عدد الابيات
البسيط	٢٣	٧٥٢
الكامل	٥	١٤١
الطويل	٧	٢٣٠
الرمل	٢	٢٤
الخفيف	٥	٨٨

واذن فولوع الشاعر بالبسيط واضح للعيان ، كما هو واضح في الموضوعات التي اختارها لهذا البحر مما سوف نشير اليه في الفقرة اللاحقة • واذا كان لنا تعليل يوضح هذا الاختيار فلا نستطيع الاغضاء عن كثرة استعمال هذا الوزن في الشعر العربي المعاصر بكثرة جعلته البحر المفضل لدى الشعراء المحدثين، يليه في ذلك «الوافر» • أما الشعراء العرب القدامى فقد أقلوا من النظم على هذا البحر ، ونظرة واحدة الى كتاب من كتب المختارات الشعرية وليكن « جمهرة أشعار العرب لابي زيد القرشي » تدلنا على قلة المنظوم على هذا البحر •

وايضا فقد كان البحر الطويل من اول البحور المحببة الى نفوس الشعراء قديما ، أما عند الشعراء المحدثين فقد اصبح بحرا مهجورا نسبيا ، ونظرة أخرى الى جمهرة أشعار العرب كفيلة بتوضيح ذلك • لقد نظم الحصني في البحرين معا ، غير أنه كان ينزع – ربما بعفوية – الى اختيار «البسيط » وتفضيله على « الطويل » ، ولعل لتقارب تفاعيل البسيط موسيقيا اثرا في هذا الاختيار • ولعل كثرة قراءات الشاعر لشعر الرواد أصحاب التجديد في الشعر العربي المعاصر من أمثال البارودي وشوقي وغيرهما ، قد تركت بصماتها هي أيضا على الشاعر، فدلت اشعاره على انه عرف ابتعاد البحر الطويل عن أذواق المعاصرين فقلل من النظم فيه دون أن يهجره كلية لانه لا يستطيع الانفصال عن موروثه الشعري ، مما يعد أصالة في شاعرنا •

هذا شيء ، وشيء آخر هو قافية شعره التي تراوحت هي ايضا بين الاصالة والمعاصرة ،ولنأخذ من هذه القافية اكثر حروفها ورودا وهو « الروي » فقد نصت كتب العروض على انه أقل ما يمكن أن يراعى تكراره،فلا يكون الشعر مقفى الا

باشتماله على ذلك الصوت المكرر في اواخر الابيات . (راجع : القوافي للاخفش ، والعروض والقوافي للتبريزي ، وميزان الذهب للهاشمي ، وكتابنا : أوزان الشعر) . لا أريد - والصفحات محدودة كما تعلمون - أن أشرع في تفصيل أمور هذا الروي ، غير أنني لا أعدم الاشارة الى شيء أريد التوقف قليلا عنده ، وهو ان الشعراء القدامى كانوا يلتزمون حركة الروي وحركة الحرف الذي قبله ، وقد شاع - على قلة - اختلاف حركة الحرف الذي قبل الروي سواء أكانت هذه الحركة طويلة أم قصيرة ، وكان هذا الاختلاف محصورا في مغايرتهم بين الضمة والكسرة وما ينتج عنهما (الواو والياء) في القصيدة الواحدة ، غير انهم لم يستحسنوا تناوب احداهما مع الفتحة او الالف التي تنتج عنهما ، فاذا سبق الروي بالفتحة قصيرة كانت ام طويلة فانهم كانوا يلتزمونها . وقد كثر هذا الشيوع في شعر الشعراء العرب المعاصرين ، اذ هدتهم آذانهم الموسيقية الى كمال الاتصال الموسيقي أو قربه الشديد بين الضمة والكسرة ، فلا يوجد فرق صوتي بين هاتين الحركتين (الواو والياء متشابهان ايضا في طريقة تكونهما الصوتي) ، بينما لاحظوا مغايرة الموسيقى اذا تناوبت الضمة او الكسرة مع الفتحة . والشعراء - في الاعم الاغلب - استحسنوا التزام الحركة قبل الروي كيلا تصبح القافية في أقصر صورها ، وكيلا تصبح الاصوات المتكررة قليلة جدا لا تكاد تزيد على الروي وفي هذا ضعف موسيقي .

هذا الذي ذكرته عن الروي نجد أمثلة واضحة عنه في شعر شاعرنا الحصني ، فقد التزم في كثير من شعره حركة ما قبل الروي ، كما كثرت في شعره تلك المغايرة بين الضمة والكسرة فشاعت شيوعا ملحوظا (سبق أن ذكرنا كثرة شيوعها في شعر المعاصرين) . غير ان شاعرنا جعل هذه المغايرة عامة في الاعم الاغلب فاستخدم الفتحة والضمة والكسرة في القصيدة الواحدة (يطلق العروضيون على هذا العيب في القوافي المقيدة اسم : سناد التوجيه) ، فاكثر قصائده تكون حركة الحرف الذي قبل الروي هي الفتحة التي كان يستبدل معها الضمة والكسرة ، من نحو فعلته في قصيدته «رسالة من أم مشرقة لولدها الفدائي» فحركة الحرف الذي قبل الروي فيها هو « الفتحة » ، غير أن الشاعر استعمل « الضمة » ست مرات ، و « الكسرة » ثماني مرات ، واذن فقد اختلفت الموسيقى أربع عشرة مرة في قصيدة تعداد ابياتها ثلاثة واربعون بيتا . ونلاحظ مثل ذلك في كثير من قصائده (مثلا : عيد الجلاء - القدس - تحية لابطال تشرين - مرابع الخلد ...) . هذا ، ولا بد لي من الاعتراف بأن الاختلاف بين الحركات الثلاث موسيقيا من القلة بحث لا تلحظه الا اذن مرهفة ، ولذلك اكثر الشعراء من هذه المخالفة في القوافي المطلقة ، بينما التزموها بين الضمة والكسرة في القوافي المقيدة ، وهم - وشاعرنا امثلهم محقون في هذا .

اذا كان هذا الشيوع دليل معاصرة الشاعر ، ومحاولته مع غيره من الشعراء المعاصرين تطويع القافية وكسر عزلتها ، فاننا لا نعدم تطلعه الى الخوض في اطول القوافي واصعبها ، من نحو اكثاره الاتيان بألف التأسيس ، والالتزام بما تجره من قوانين ، من نحو قوله في قصيدة « صيحة الحق » :

حدثيني عن العلا والمفاخر　　　يا ربى المجد .. يا سفوح الجزائر

ان الروي صوت واحد ، غير أن وجود ألف التأسيس قبله يجعل في القافية أربعة أصوات متكررة ، وفي ذلك ما فيه من عناء للشاعر ، وفي ذلك أيضا دليل على محافظة الشاعر على تراثه الشعري ، وعلى مقدرته الشعرية ايضا .

اذا كنت قد اشرت الى هذا الجزء من موسيقى شعر الحصني ، فما ذلك الا لأخلص الى ماذكرته في بداية حديثي من انه شاعر اصيل ، ودليل أصالته وعيه لتراثه الشعري وربطه ذلك بعصره الحاضر . وقد يستطيع غيري ملاحظة نواح أخرى من هذه الاصالة والمعاصرة في الاجزاء الاخرى المكونة لموسيقى شعره ، من نحو دراسة الفرق بين تفاعيل البحر الطويل والبسيط ، وما بين الايقاع في كل منهما ، وفي الالفاظ وجزالتها ، وترتيبها ، وتركيبها في جمل ، وفي عملية احصائية يقوم بها الدارس لهذه الالفاظ كأن يضع جانبا تلك الالفاظ التي كثر استعمالها في الشعر القديم وأهملت الآن ، وتلك التي كانت مهملة فأحياها الاستعمال المعاصر أو ولدها من ألفاظ كانت مهملة أو مستعملة ، ففي ذلك كله دليل - وربما كان أقوى دلالة - على ما نقول .

- ٢ -

في دلالتنا الثانية على الاصالة والمعاصرة في شعر الحصني ، لا بد من ان نشير الى ان القضية هنا في المضمون اكثر وضوحا ، وادعى الى الدراسة المتأنية التي ليست في مقدورنا الان .

والحقيقة ان التماس المعاصرة في الشعر السوري تكاد تكون سهلة ميسورة في الجانب القومي منها، وتكاد تنعدم في الجانب الذاتي الآخر من هذه العملة المعاصرة ٠

اننا نستطيع – بيسر – التدليل على مشاركة شاعرنا الحصني في احداث امته القومية من الجلاء الى حرب تشرين وما بين هاتين المناسبتين من احداث٠٠٠ فنراه يقف عند جلاء الفرنسيين ، كما يقف عند القدس السليبة ، وعند ابطال تشرين ، وعند انتصار الجزائر٠٠٠ وعند غير ذلك ٠

أكرر القول : اننا نستطيع – بيسر – ملاحظة مشاركة شاعرنا الحصني في أحداث امته، كما نستطيع ذلك – وبالسهولة نفسها – مع الشعراء الاخرين، فهم في – هذه الايام – كثر – والحمد لله – ، وكلهم يشارك في الاحداث جميعها ، واذن فليست المشاركة بذات بال اذا لم تترك عند القراء مذاقا خاصا متميزا، نعرف منه شعر الحصيني من شعر ابي ريشة من شعر غيرهما من الشعراء ٠٠ ان هذا التفاوت في صدى الاحداث في نفوس الشعراء ، وهذا التواتر بين وجهه القومي ، وبين الحدث في صورته النفسية ، وبين هذا الحدث في الحالين معا ٠٠٠ ان هذا كله لهو مدار الاختلاف بين الشعراء ، بل هو – في رأيي – معرض الالتزام الذي سودوا فيه صحائف طويلة كانوا يلتمسون لها شواهد قسرت على التدليل قسرا بحيث لم تعد مقنعة ولا متجاوبة مع هؤلاء القراء الذين نفترض – اساسا – ان الشعر موجه لهم ٠

اسمحوا لي بفضل حديث أوضح فيه أصالة ومعاصرة الحصني من هذا الجانب الذي ذكرته ٠ ان هذا الشاعر كما أراه متوفز الاحساس دائما ، يرهقه في حياته قطبان يتجاذبانه في اتجاه واحد : الوطن والشعر، وفي كلا هذين نلمح واقعا يعيشه الشاعر ، ومستقبلا يرنو اليه نلمح وطنا ممزقا واحداثا تترى عليه، وشعرا يتعاقب عليه المدعون ٠٠ نلمح وطنا يزهر في الشعر وشعرا يورق في الوطن فاذا اكرم الشعر فقد كرم الوطن ، واذا أهين الوطن فقد ذل الشعر ٠٠٠ هذا المزيج المؤلف من الذات في الوطن ، والوطن في الذات ، نلمحه بارزا في شعر الحصني ، بل انني لم أر غيره في ديوانه كله ، فهو يحمل الشعر والوطن على كتفه ، ويعتبر نفسه مسيحا يصلب من اجل رفعة شأنهما ، فاذا فرح في عيد الجلاء كان الشعر :

كرمى لعين بلادي كل جارحة — مني غناء ، ولحن مترف نضر

واذا أسي لفقدان القدس كان الشعر ايضا :

لا تحبس الشعر، هذا الجرح ما التاما — وجرد الماضيين السيف والقلما

وحسب القراء أن أنقل اليهم المقطوعة التالية التي يبلغ المزج فيها بين الوطن والذات أقصى درجاته ٠ يقول الحصني جوابا عن سؤالها له : لم لم تعد تكتب الشعر الغزلي ؟ :

وعينيك يا شقراء ما صوح الهوى — لدي ، ووهج الحب في النفس ما خبا
ذريني أصب الشعر من مهجتي دما — فقد آن أن يعطى التراب ليشربا
توانت سيوف العرب عن صون حقها — وخلته للاوغاد ، ياخجلة الابا
اذا لم يكن شعري من القلب شعلة — فلا كان انشادا ، ولا كنت مطربا
فعذرا اذا جف المداد ولم اعد — اذا قلت شعرا أذكر الكاس والصبا
فما ذاك ترحال الشباب ، وانما — أخو المجد يابى أن يهان ويسلبا

قلت : حسبي تلك أمثلة ، فالديوان مليء بذلك انه يصرح أن شاعرنا قد وعى دوره في أمته فعبر عنه خير تعبير ٠٠٠ وعى أن التزامه يبدأ من معرفته لنفسه لينتهي بوطنه وتلك اصالته ومعاصرته التي وددنا التدليل عليها ٠ ولا يخفى أن توفز احساس شاعرنا جعله يرى فقدان الاديب الحق ما هو الا فقدان لجزء من هذا الوطن – كما رأى قبل اكرامه من رفعة الشأن – فلهذا كان يندب خسارة الوطن في شخص الاديب ، كما فعل مع بدر الدين الحامد ووصفي قرنفلي وسامي الكيالي ونظير زيتون وغيرهم ، فلم يكن موت احدهم مناسبة لرثائهم بل هو مناسبة لرثاء الشعر والشعراء ، لرثاء الوطن الذي فقد ركنا هاما من أركانه ٠

وبعد ، فالعلاقة الجدلية بين اصالة الشكل والمضمون تتضح لنا اذا حاولنا ضم هذين الامرين معا ، لنرى ان المضمون ينبثق من خلال شكل معاصر يستعمل الان ، والذي يضفي على هذا البحر البسيط الاكثر استعمالا المزيج أريجا من موسيقى ألفتها الاذن المعاصرة ٠ وهنا لا بد من القول ان هاتين النقطتين اللتين حاولنا الاشارة اليهما ، تستحقان مزيدا من الدرس لاستخراج صورة الشاعر واضحة منهما ، وان كان الدارس يجد صعوبة في ترتيب دراسته لقصائد الديوان بسبب اهمال الشاعر تأريخ القصائد ، فانه بعد قليل من الدرس – يستطيع ترتيب القصائد تاريخيا اذا قرأ الديوان من آخره الى أوله ، وظني ان شاعرنا قد رتب هذه القصائد ثم عكسها وقدمها لوزارة الثقافة التي قامت بطباعة الديوان ٠

★

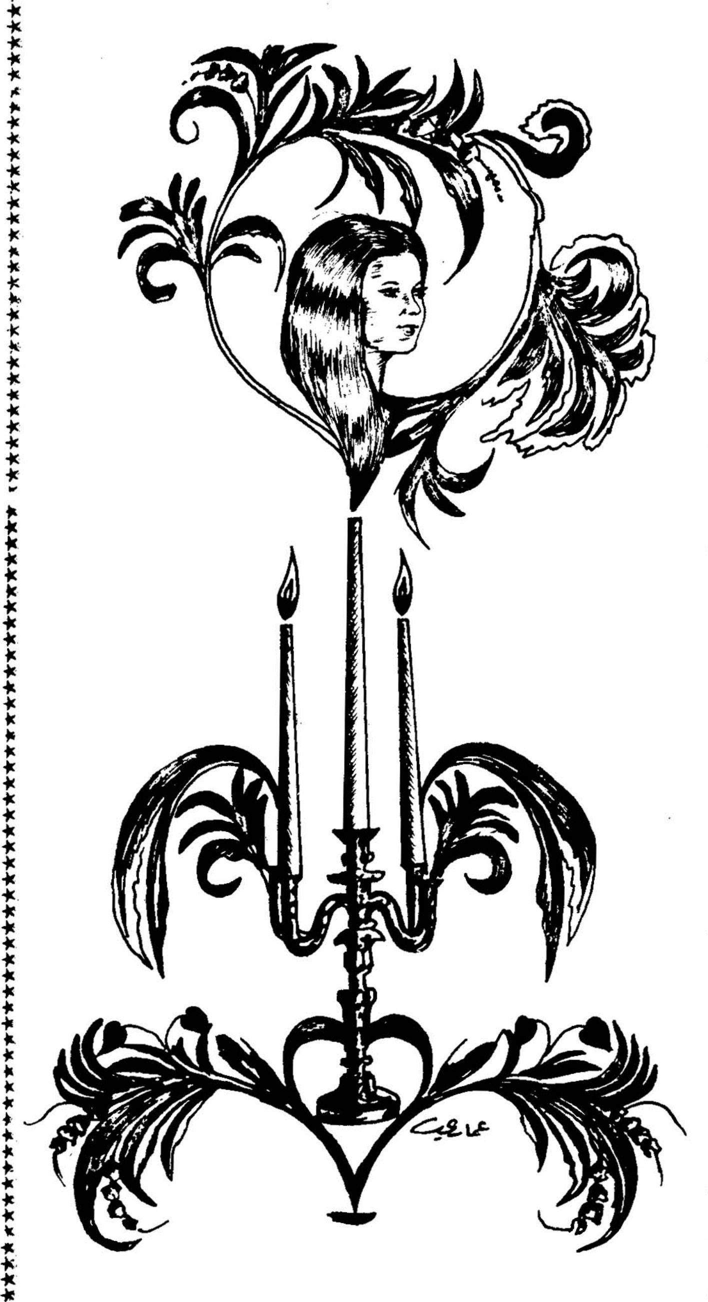
سمر روحي الفيصل – حمص

تائـه !!..

بقلم

حسن محمد الطريق

بريشة



ترك النور مشرقـا ومضى يبحث عن فجـره وراء سرابه
شع في ناظريه شوقه واشتد به الوجد ، فانبرى غـير آبـه

ظل يمشي والريح تعول من حوله،والخوف والاسى في ركابه
يقطع البحر وحـده ، لا رفيق معه غير كالح من ضبابه

وينادي ، ويرتمي ، فيموت العـزم في قلبـه وفي اعصـابه

وينادي ، وما هناك على الشاطىء نور يريـه بعض شعابه

ويـرد الصـدى عليـه نداءاتـه في كـل قفـره ويبابه
اين يمشي ، وكل ما حوله ليـل بهيم يلف كـل رغابه ؟

وظلام القبـور حولـه يشـتد ويذكي السكوت نار عذابه
ويريد الاياب ، لكن اعصارا رهيبا يحـول دون ايابـه

فتموت الاحـلام في قلبـه الداوي ، ويحبو الفناء في اهدابه
يعكس المـوج امنياتـه في المـاء ، واطياف غابر من شبابه

ويثور البحر الخضم فيطوي كل هذي الاطياف تحت عبـابه

أوهنته الدموع فانتثرت كالورق حتى اربت على تصخابـه

سرح الطرف في مياهه ، وارتـد من الهول ليس يبصر ما به
وتهاوت من قبضته المجاديف، وزاد التصخاب في ارهابـه

وغدا مثـل مركب يتلاقى المـوج في جوفـه على ركابـه
ايقنت نفسه من الموت يدنو ، فغدا لا يدري سبيل اجتنابه

ورمته الامواج في الشاطىء المهجور مغمى عليه...يالمصابه

فتوالى كالهمس في رجفة الخوف يناجي العتي من اصابه

ظل يبكي حتى تراءى له النور ضيئـلا فسار في اعقابـه

ثم عاد الظلام جونا ، وغاب النور عنه ، فاغتم عند غيابه

ادرك الحق ـ ثم سار بطيىء الخطو يبكي ، ودب في سردابه

ثم جاب الظلام فيكل سرداب...وماذا يريد من تجوابه؟..

وارتضى الليـل مطمحا عـن مواثيقـه وعـن احبـابه

لم يعد ليله ـ كما كان كالربوة ـ يخضر فيه وجـه سحابه

لم يعد لجـة مجلجلة الصوت تدوي كالرعـد في اخصابـه

لم يعد يطلب الكرامة والنـور ، ولا شيء من قديم رغابه

ظل كالكهف قابعا والدنى حوله نور يضيىء كـل شعابه

عاد يخشى السنا، وامسى هنايرتقب الغيب واذىفي ارتقابه

ليتـه مـات ، ليتهـا طويت قصـة أيـام عمره المتشابه

حوار !
مع ابنة زيدون

بجنيف

د. عبده بدوي

في ذلك البلـد المطرز بالوسامـة جانبـاه
والمنتمي للشمس والابداع والعرب الشداه
يحلو حديث الشعر بين ربوعه وبمنتـداه
لا يسعد العربي مثل الشعر يخطو في عـلاه
في شرقنا يمشي ربيب الوزن من قبل الحيـاه
أعطى لنا الاقمار ، والاشعار ، والعرب الاباه
كانوا ــ ويمشي موكب الشمس لا يخفى سناه ــ
ان حاربوا فازوا أراجيز الفتوة منتقـاه
أو سالموا شدت السفوح على أناشيد الرعاه
غنوا غناء باسما البرق يسطـع في الجباه
ولـد معتـبين وراء أهداب تنرد للصـلاه
والليـلة طالت كما مـدت ضفيرتهـا فتاه !
والرحلة « الايلاف » تزجيها قريش في الفلاه
لــا تزل في كــل ركن لمستاه ! وقبلتاه !
في كل أرض صوتهم يندام · يوغل في سراه
حماته كفا « عقبـة » وحصانه فوق الميـاه
ومقاله «يا رب · لولا البحر سرت الى اتجاه ! »
ومشى بعزيمة «طارق» فرحا، وتاريخا،وجاه
هي خطوة ·· واذا المآذن في البلاد وفي الدعاه
واذا السماحة،والفطانة، والحضارة، والهداه
··من بعد هذا اليوم «ليس بغالب الا الاله!»



في ذلك البلد الـــذي يشدو كحلـم العاشقـين
ويشع مثـــل الكوكب الـــدري في الليل الحزين
·· يحلو حديث عن فتى ما زال يبعث في السنين
فهو الـــذي سكب العذوبة في شفاه الملهمــين
وهو الـــذي شد النجوم على جبـــاه المتعبــين
وهو الذي جـــذب الضفائر قبل كـــل المعجبــين
وهو الذي ــ ويجيء صوت واثق غرد مبـــين ــ
« ·· أنا ذلك القلب الذي قد عاش موصول الانين
ما زلت أحلم بالمعـــالي ، والوسامـــة ، والفنون
وأقول شعـــرا مترفا ينساب من جـــرح دفـــين
كل الحروف اخضوضرت لما مـــددت لها اليمــين
كـــل العيون رسمت في أشواقهـــا ·· كل العيون
كـــل الشفاه خطرت فيما ترتجيـــه ولا تبـــين
كـــل البيوت قـــد اتكأت بسورها كاليـاسمين
يا للجمال القرطبي يشـــير ! يدفىء ! يستكـــين !
·· ان سرت في « مدريد » يوما ثم قد ضج السكون
ورأيت وجهـــا أسمر الايقـــاع ، شرقي اللحون
والشعر فيـــه زهرة حمـــراء ترسم في الجبـــين
فالزهرة الحمراء قلبي ! ! ما تبقى من مجون ! !
لا تحسبن العطـــر في أوراقهـــا العطر الهجـــين
هـــو عطرنا العربي يصرخ في وجود الآخـــرين ! !
·· وأقول للشيخ الـــذي لاحت بجبهتـــه الغضون

ابــدعت فيمـا قدمت كفـــاك من در ثمـــين !
لكن « ليالكة الجمال القرطبي » تركتها خلف الظنون
أطلق اناقتهـــا ، وضحكتهـــا ، وثرثرة الجفون
والعـــين ترنو خلف « مروحـة » تخاصم أو تلـين
والقـرط في مهوى عميق كــاد يدفـــع للجنون
٠٠ أترى تغار على الاميرة ؟ ذلك الكنز الثمين ؟
« ولادة » بنت الخليفة ، والجدود الشامخـــين !
ولادة ـ ويمـــوء صوت ناعـــم حلو الرنـــين !
١ ـ ترقب اذا جن الظـــلام زيارتي
فاني رأيت الليـــــل أكتـــم للسر
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح
وبالبـــدر لم يطلع وبالنجم لم يسر !
٢ ـ انا والله أصلـــح للمعـــالي
وأمشي مشيـــتي وأتيـــه تيهـــا
أمكن عاشقي من لثم ثغـــري
وأعطـــي قبلتي مـــن يشتهيهـــا !
فاذا انتشى من صوتهـــا الشادي ومن شعر رصين
ساءلته عن قصة القلب المدلل والطعـــين ؟ ٠٠٠٠
فيقول : كانت جنة وهبطت منها للمنون ! ٠٠٠٠
يشكو !! يحط الكف فوق الصدر حينا بعد حين !!
يبكي فتلمع في الدجى المنسي « أندلس الفنون ! »

★ ★ ★

في ذلك البـــلد الـــذي مـــلأ المسامـــع بالبطوله
وأطل من فوق المحيط على « مغانينا القتيله ! »
٠٠ عشنا قـــرونا حلـــوة ما بـــين أيام قليله !
جئنا نغني « لابن زيـــدون » ويسمعنـــا هديله
يا جـــدنا جئنـــا اليك بكل أفـــراح الطفولـــه
في بـــلدة مـــاجت خطوطا وانحنـــاءات ظليـــله
هي بيت شعر ود من يزجي القصائد أن يقولـــه !
هي حلم أجيـــال يود المجـــد يوما أن يطيله !
ما زال محمـــوم العواطف ٠٠ لا يفر من الحنـــين
وأقـــول : من بـــدأ الخيـــانة ؟ من أثار الشامتين ؟
فيقول : كانت شمعـــة في كوتي وأنا سجـــين !
وأقول : من أغرى بروض العشق حقد الحاقدين ؟
فيقول : كانت في بحـــار الحزن مجـــدافا أمين !
وأقول : ما أحلى الـــذي غنيت من صوت حنون ؟
فيقول : « قد أضحى التنائي » فهي مصباح القرون
وهي التي تبقى مع « الحمراء » في الزمن الضنين!!
٠٠ وأراه يرعش دمعـــة كفراشة بـــين الغصون
هي للمحـــارة درة ! ولكـــل عصفور خميـــله
٠٠ آنا تضيء كغـــادة عـــلى ظهر جديله
وبمرة تبـــدو بروعتهـــا المنغمـــة الجليله
وبكفها من أرض أندلس « مفاتيح القبيله ! ! »
٠٠ فاذا قـــدمنا طائرين فللفراق خطى ثقيله
لكن نعـــود بوردة بيضاء من يـــدك الجميـــلة ! !



ابن زيدون

بحث

تحت أضواء التحليل النفسي

• الدكتور ممدوح حقي •

يقول مثل انكليزي : « يقبض على الثور من قرنيه ، وعلى الرجل من لسانه » والمقصود باللسان هنا ، الكلام الذي يتفوه به المرء ، فانه لا يعقل أن يتحدث انسان عاقل بكلام لم تبتعثه فكرة مختفية في أعماق نفسه ، لا تظهر منها الا الصورة الكلامية • ولهذا قال العرب : « المرء مخبوء تحت طي لسانه ، لا تحت طيلسانه » • وهو قول اعمق من المثل الانكليزي وأدق ، اذ يعقد المقارنة بين المرء ونفسه ، او بين ظاهره وباطنه ، بينما عقد المثل الانكليزي المقارنة بين الرجل والثور لابراز الفكرة فجاءت فجة لا عمق فيها •

واذا كان الاقدمون قد تنبهوا الى العلاقة ما بين الكلام المنطوق والفكرة المخبوءة وراءه ، وورد ذكر ذلك في نثرهم ونظمهم وأمثالهم ، غير انهم لم يتعمقوا في بحثها وملاحقتها علميا وتجريبيا كما تعمق فرويد بدءا من اول مقال نشره حتى آخر كتاب الفه ، وسمى هذا العالم التحليل النفسي وما زال يتطور ويتقدم على يديه نفسه وعلى أيدي تلاميذه وخصومه ، حتى وصل الى مرتبة العلوم الثابتة ، وبنى عليه من بعد طب خاص سمي « الطب النفساني » وانتشرت العيادات النفسانية في البلاد المتقدمة تطبيقا له حتى ضاق عنها الحصر ، وتفرعت التخصصات ، ووصلت الى بعض البلاد التي ما تزال في طريق التطور ، والتي يسمونها اختصارا « البلاد النامية » وانتشرت بعض تعبيراته الفنية في الصحف وعلى ألسنة الناس كقولهم مثلا : مركب نقص • عقدة اوديب العقل الباطن • اللا شعور ، النرجسية •• وما شاكلها •

وقد أعاننا هذا العلم المبتكر الحديث على تفهم كثير من قضايا التاريخ والادب والفلسفة ، وعلى حلول كثير من المشاكل الاجتماعية ، وعلى التعمق في العلوم الانسانية ، كما ساعدنا على شفاء كثير من المرضى النفسيين •

والاسلوب العام المتبع لدى مختلف المذاهب التحليلية ، هو وضع المريض تحت تأثير تنويم مغناطيسي ، ثم استجوابه وملاحقة افكاره مرة بعد مرة ، او تركه صاحيا مستلقيا على شبه سرير مريح ، يتحدث بما يخطر على باله متماديا مستمرا ، والمسجلة تلتقط من فمه كل حرف ، يعاونها موازين ضغط الدم وعداد النبض ومسبار التنفس وسواها ••• مما يساعد الطبيب على تحليلها واكتشاف سر المرض ، ومعاونة المريض على التقدم نحو الصحة ، وشفائه من متاعبه المرضية •

ان نتعمق في عرض التحليل النفسي اكثر مما عرضنا ، فذلك شرح يطول ، وليس هنا مقامه ، بل ماربنا جعله وسيلة الى الموضوع الذي نبغي • على اننا لو وقفنا هنيهة ودققنا في مختلف الاساليب التحليلية ، لوجدناها جميعا ترتكز على فتح باب « اللا شعور » الذي يطلقون عليه احيانا « ما وراء الشعور » او « العقل الباطن » او غير ذلك من التسميات التي لا تعني اكثر من اطلاق الافكار المخبوءة المضغوط عليها وراء العقل الواعي ، والتي تؤذي نفسية المريض وتقلقه بكثرة ما تطرق على باب حبسها ، او تضغط

على جدرانه وتصيح وتصخب رغبة في الخروج والتحرر ، وقد ينتقل ضغطهـا من ساحة النفس الى ساحة الجسم المادي احيانا ، فتصيب صاحبها بالصرع او اللهوسة او السبحة في الخيال او الشلل ، وقد تظهر في النوم بأحلام مزعجة مخيفة قلقة او على يئة جاثوم او سمنة •

وعندنا نحن علماء الادب طريقة اخرى في التحليل ، لاتقل دقة عن طرائق النفسانيين نستطيع بها اكتشاف كثير من أسرار النفس ، لكن بشيء من طول الانـاة والصبر والدرس وتحليل شعر الشاعر وآثار الكاتب ، ولو مضى على وفاته زمن طويل ، ويكون ذلك منا : بجمع الافكار التي يكثر من عرضها تصريحا او تلميحا ، في مختلف اساليبها ومتباين مناسباتها واستعراض صورها ، واحصاء الالفاظ والمصطلحات التي يستخدمها لذلك • يضاف الى هذا : سيرته وسلوكه وعلاقاته مع الناس وحديثهم عنه وحديثه عنهم ، وكثيرا ما نصل بهذا الاسلوب من البحث الى حقائق تغـير كثيرا من المفاهيم المتداولة في كتب الادباء والباحثين واساتذة التاريخ الادبي ••• او تؤيدها •

فالاديب والكاتب والصحفي والشـاعر والمصور والنحات ، والمفن — على العموم — ينسل اثناء استغراقه في عمله الفني ، من ساحة العقل الواعي الى احلام اليقظة ويعود مرارا ويستلهم بعد مخبئات العقل اللا واعي ، شاء او أبى ، فهو كالمريض النفساني المستلقي على سرير العيادة النفسانية ، يتحدث امام الآلة المسجلة ، ونحن نلتقط منه الكلمات والصور والتعبيرات ونحللها •

وربما كان الشاعر أسهل علينا درسا من سواه ، لكثرة سبحاته وذهوله واستلهامه فهو كالمصور المفن ، يستخدم الكلمات لتصوير خوالجه كما يستخدم الآخر الالوان لتصوير ما يعتلج في نفسه ، وكلاهما يغيب عن وجوده الواعي غيبوبة عميقة او ضحلة ويغترف من بحيرة اللا وعي اثنـاء عمله الفني ، ولا يتدخل عقله الواعي الا في تنسيق ما اغترف • بهذا الاسلوب من البحث أمكننا دراسـة كثير من الشعراء القدامى والمحدثين وتوصلنا الى نتائج لم ينتبه لها نقادنا الاقدمون • وابن زيدون واحد من هؤلاء الشعراء ، نتخذه مثـالا للبحث الجديد ، ولا نستفيض فيه ، لان ما سنعرضه نموذج للبحث يمكن أن ينسج على منواله في غير هذا المقام ، ونحب أن نستبق البحث فنقول : انه عمل صعب لا يصح ان يهجم عليه المبتدئون ، وان لملمة الادلة بصورة عشوائية لا توفي بنـا الى الغرض المطلوب ، بل لا بد من التدقيق الشديد ، والوقوف عند كل دليل ننتقيه بحذر بالغ ، فقد يكون الشاعر المفن من البراعة والقدرة بحيث يستطيع أن يخفي نفسه عنا ، او يسترها بغشاء ملون يموه به عن لونها الحقيقي ، وقد يدعي ما ليس فيه فيتيه البـاحث أي الصورتين أصدق : السلبية منهما ام الايجابيـة ؟! ولقدماء النقاد في هذا الباب جولات موفقة جدا ، كشفوا بها جبن مدعي الشجاعة ، وبخل المتلبس بصورة الكريم ، وفسوق المتظاهر بالتقوى ، وجشع المتزهد •• لكن اكثر اتكائهم في هذه الوسيلة ، كان على المتحدثين بسيرته لا على زلقات لسانه نفسه ، ولا بنوا آرائهم فيه على احصاءات • وكيف نطالبهم بالاحصاء ، وهو علم لم يوجد الا متأخرا ؟ واحصاء الفاظ الكتاب والشعراء عمل تعلمناه من الغرب في القرن الاخير ولم نكن نعرفه او نسمع بـه قبل اواخر القرن التاسع عشر • انه عمل رهيف يحتاج الى دقة وصبر وعلم باللغة وتصريفها واشتقاقها ، وهو من العلوم التي لم تصل بعد الى البلاد العربية ، مـع ان الآلة الحاسبة الالكترونية ، سهلت العمل فيه كثيرا واختصرت من الوقت عمل سنة بثانية ، ونعترف — سلفا — باننا لم نستطع القيام باحصاء دقيق لآثار ابن زيدون والفاظه ومصطلحـاته ، ولكنا تنبهنا الى اكثر ما تداوله ونحن نقرأ شعره ورسالاته ووقفنا طويلا عند تساؤل محير : هل كـان ابن زيدون صحيحا نفسيا ، أم كان مريضا ؟! وما هو الدليل على صحته وسلامته ، وما هو الدليل على مرضه ؟! وما نوع المرض ، أن كان مريضا ، ومتى اصيب به ؟ وما سبب وقوعه فيه ؟

وهل طالت معاناته له ام شفي منـه ؟! وكيف شفي ومتى ٠٠٠٠؟!

ان تحري الامراض النفسية وتتبعها اصعب بكثير من اكتشاف الامراض الجسدية فهذه مادية ملموسة محسوسة مدروسة منذ ما قبل ابيوقراط ، اما الاخرى فيغلفها الخفاء ويحوطها الابهام من كل جهة ، لان النفس واقع مبهم لم تكتشف حقيقته بعد ، ولم يعرف ـ حتى اليوم ـ هل النفس جزء من الروح ، أم هي الروح نفسها ، أم مغايرة لها ؟! وهل تولد مع الجسم صغيرة ثم تنمو بنموه وتتطور معه ، أم تولد فيه كاملة تامة ناضجة وتكتشف رويدا رويدا مع تنامي الجسم وتطوره ؟! وهل ولدت قبله او معه او بعده؟ وهل كانت عالمة بجميع علوم الأرض ـ كما يدعي اريسطو وابن سينا ـ وهي في الملأ الاعلى ، ثم غم عليها علمها او نسيته حين حبست في قفص الجسم ، فتعلمها في الحياةالدنيا تذكر بعد نسيان !! اسئلة ما زالت محيرة ، نقف امامها عاجزين ، ولا نجد ملجأ سوى قول القرآن الكريم : « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي ، وما اوتيتم من العلم الا قليلا » ومن هذا القليل الجزئي ، انبثق علم التحليل النفسي ، ومنه انطلقنا الى محاولة الكشف عن صحة ابن زيدون النفسية ، واعتقدنا بانه لو عاش في عصرنا هذا ، لأحلناه الى عيادة من العيادات النفسانية لمعالجته ، ولما بخلنا عن استطبابه بالمال ولا بسواه ، فمثل ابن زيدون ، قطع نادر من بين عباقرة الاندلس ٠

نحن نعرف بان ابن زيدون نصب وزيرا وعمره ست وعشرون سنة ، وحمل لقب « ذي الوزارتين : السياسية والادب ، بعد ذلك بقليل ، فلنتخيل الآن الجو الاجتماعي الذي لم يكن يعترف بالحكمة والارادة والقدرة السياسية الا للشيوخ الذين حنكتهم التجارب وطول السنين ، هذا المجتمع الذي يتمثل فيه القول المأثور : « رأى الشيخ خير من مشهد الغلام » يرى على رأس الوزارة شابا لم تكد الدنيا تتفتح عنه بعد ، ولنتخيل مدى الارتكاس الاجتماعي في اوساط الكبار والطامحين والمنافسين ضده ، الذين لم يخرسهم عن مقاومته الصريحه الا حزم الامير ابن جهور رئيس الدولة الجديدة ، وشدته ويقظته ، ووقوفه الى جانب ابن زيدون ٠

ولذلك لم يجاهره بالعداء ، بل تحركت الدسائس ضده سرا من كل جانب وكان عصره عصر مؤامرات وفتن مزقت الاندلس الموحد الى عشرين دويلة وامارة ، ووفقوا الى عزله وسجنه ، واعانهم هو على نفسه بغطرسته وغرته وكبريائه ، مما جعله هدفا سهلا للرماية والطعن ، وغالبا مايكون المتسلطون الواثبون الى الحكم بالتآمر حذرين يستمعون الى الوشايات ولا يحققون في صحتها ، وبخاصة الذين شاركوهم في مؤامراتهم ، ونحن نعلم انابن زيدون كان ضلعا في المؤامرة التي اطاحت بالبيت الاموي ورفعت ابن جهور الى دست الحكم ٠ وتجمعت ضد ابن زيدون تهم مخيفة منها :

أ ـ صلته بولادة بنت المستكفى الخليفة الاموي المطاح به ، توحي بتآمرهما معا على اعادة الملك الى بني امية ٠

ب ـ اطلاق لسانه في جلساته الخاصة بما يلقاها من ترحيب واعزاز لدى ملوك الطوائف ـ وهو يسفر لديهم ـ وحسدهم ابن جهور عليه ، لشاعريته وعبقريته ودبلوماسيته ٠٠٠٠ يوحي بصلات سرية بينه وبينهم ٠

ج ـ منافسة ابن عبدوس له على ولادة ، والخصم يجسم عيوب خصمه ، مهما كانت صغيرة ٠ ولقيت دسائسه ومؤامرات منافسة اذنا صاغية لدى الحاكم المستبد، فوضعه تحت المراقبة زمنا وهو لأيشعر حتى وقع ٠

والقى بابن زيدون في السجن ، وطال حبسه حتى ضجر ، ثم فر وقد تأصل فيه الحقد ، واتخذ الغرور صفة التعالي المنتقم بالاحتقار ، ٠٠ وهي امراض نفسيه تحتاج الى معالجة، ولنحاول اكتشافها من سيرته ومن اقواله ٠

١ ـ كتب الى ابي عامر بن مسلمة في اشبيلية رسالة

ليزكيه عند المعتضد ابن عباد فيتوصل الى العمل في دولته، جاء فيها : « في علمك ـ اعزك الله ـ ما تقتضيه من ظلام الخاطر وصدأ النفس ، ويجنتيه طول المقام من اخلاق الديباجة وارخاص القدر ، وقد آن ان اجتني ثمرة من آداب اطلت الاعتناء بها ، واخلاق ادمت رياضة النفس عليها.» .

فهو يدل ـ حتى في موقف الرجاء والحاجة ـ بآدابه التي اطال العناية بها وبأخلاقه التي ادام رياضة النفس عليها ، حتى بلغ الى ما يطمح اليه .

٢ ـ « قام على جنازة بعض حرمه يتقبل تعازي الناس من مختلف طبقاتهم ؟ فما سمع له جواب اجاب به آخر حتى نفدوا » .

ومهما يكن في هذه القصة من مبالغة ، ولو انها رويت عن سواه كذلك فانها تشير الى مقدار مافي نفسه من غرور بحيث يتظاهر بقدرته اللغوية ،حتى في مواقف الحزن الذي يفقد المرء فيها السيطرة على محفوظه احيانا ، فكيف بالجد واستفراغ الجهد العقلي وكد الذاكرة في البحث عن صيغ متجددة يقابل بها كل معز على حدة ؟!

٣ ـ ويعتذر ـ وهو في السجن ـ بقصيدة بعث بها لابن جهور ، تستشم منها رائحة الغرور جدا كقوله

ولو انني واقعت عمدا خطيئة
لما كان بدعا من سجاياك ان تملي
فلم استثر حرب الفجار ولم اطلع
مسيلمة ، اذ قال اني من الرسل

٤ ـ وفي رسالته الجدية التي بعث بها اليه كذلك ، كثير من التفاخر والتعالي والادلال ، كأنه يمن عليه ولا يستعطيه عفوا ولايستمحيه منه يقول منها:« ...وغضضت عني طرف حمايتك ، بعد ان نظر الاعمى الى تأميلي لك ، وسمع الاصم ثنائي عليك ، واحس الجماد باستحمادي لك .. هل انا الايد ادماها سوارها ، وجبين عض به اكليله ، ومشرفي الصقه بالارض صاقله ، وسمهري عرضه على النار مثقفه .. اعود فاقول: ماهذا الذنب الذي لم يسعه عفوك، والجهل الذي لم يأت من ورائه حملك ، والتطاول الذي لم يستغرقه طولك ، والتحامل الذي لم يف به احتمالك ..» .

٥ ـ حتى في رسالته الهزلية وهي التي بعث بها لابن عبدوس على لسان ولادة ، يقول واصفا نفسه : « وانما غرك من علمت صبوتي اليه ، وشهدت مساعفتي له ، من اقمار العصر ورياحين المصر، الذين هم الكواكب علو همم، والرياض طيب شمم ..» .

٦ ـ ويصف نفسه بانه هزبر الثرى ، وبانه مسك لا يضيع قيمته فته في التراب :

ويفت المسك في الترب فيوطا ويداس
وانه موضع اهتمام الناس وتسآلهم عنه
كلهم يسأل عن حالي وللذئب اعتساس
ولايرى في فراره من السجن عارا
فقد فر موسى حين هم به القبط ...

٧ ـ ويتمادى مرض حب العظمة فيه فينقلب فيه الى التحدي ، خصوصا بعد تخلصه من سجن قرطبة ، ومن ظلم آل جهور :

وكأن رامت الايام ترويعي فلم ارتع
اذا اصابتني الجلى تجلت عن فتى اروع
ويزدري خصومه ويسميهم عقارب الساعة
تدب الى ما تألوا عقارب ماتني تلسع

ويعتذر لتدنيه في مدح اناس غير جديرين بغير الهجاء بانه اخطأ فكذب ، فعوقب على كذبه في مدحهم بالسجن .

قل للوزير وقد قطعت بمدحه
زمنا فكان السجن منه ثوابي
لم تخط في أمري الصواب موفقا
هذا جزاء الشاعر الكذاب

اظن ان هذه الشواهد وحدها كافية على استغراق ابن زيدون بحب نفسه ، وتمجده بعبقريته وتعاليه وتكبره وتحديه ، لكنه لم يبلغ ـ مع ذلك ـ ما بلغه سواء من

الشعراء النرجسيين امثال ابي الطيب المتنبي ، القائل ،على سبيل المثال :

اي عظيم ارتقى اي كبير اتقى
وكل ماقد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

ويبدو ان هذا المرض عام بين جميع اصحاب الفن ، شعراء ورسامين وممثلين ومن شاكلهم ونحن نعتقد انه لو لا هذا الغرور فيهم ، لما توصلوا الى انتاجهم الخالد الذي توصلو اليه • فهم يتخيلون ما لم يبلغوه كأنه واقع ، ويسعون الى تحقيقه بكل جهدهم ، فيرتفعون بفنهم مع كل محاولة درجة ، وكأن هذا المرض من لوازم العبقرية ، فهو اذن مرض مفيد لا ضرر منه على المجتمع ولا فيه عدوى ، الا ما قد يجر على صاحبه من حسد الحساد وحقد الخصوم ودسائس المنافسين الكسالى والادنياء •

وهناك صور اخرى في ابن زيدون تشير الى هذا المرض ، مرض التعالي ، نأخذ منها : تعمده التأنق في شعره وترسله ، وربما كان كذلك في ملبسه ومسكنه وعلاقاته مع الناس وهو نفسه يعترف بذلك ، فيقول مثلا الى أمير بطليوس ، ابي بكر الافطس :« ولما اطرد هذا النثر لحسن اتساقه ، ولذ مساقه ، هزت النظم لها اريحية جذب لها بعنانه ••• »

ويقول في رسالة اخرى : « ولما توالت غرر هذا النثر واتسقت درره ، فهز عطف غلوائه وجر ذيل خيلائه عارضه النظم مباهيا•••حتى زف اليك منه عروسامجلوة في اثوابها ، منصوصة بحليها وملابسها •• » •

واعترف له معاصروه بهذه الاناقة، فحين تولى الكتابة في خضرة المعتضد باشبيلية كان أهل شرق الاندلس يقولون: « تأتي من أشبيلية كتب هي بالمنظوم اشبه منها بالمنثور»•

واذا كانت الاناقة اللفظية زي عصره ، او مرضه الادبي الشائع في المشرق والمغرب ، فقد كان ابن زيدون ذواقة انافة ، مبتدعا غير متبع ، دقيقا في فهم الصلة الكائنة بين الالوان وتناسق الطبيعة مع الانسان ، وهو في هذا دقيق الاحساس كالمرأة ، لايحب أن يظهر للناس ، الابالمظهر الذي يرفعه في اعينهم ولا يخفضه ، حبا بالحفاظ على مستواه الارستقراطي الرفيع•• بل انه في علاقاته الغرامية يطمح الى اعلى طبقة اجتماعية فينتقي بنت الخليفة له ،من بين سائر صبايا قرطبة ، ليرتفع بها الى مستواها ،فلما خانته ، والتحقت بخصمه ابن عبدوس ، خليلها الاول ، شعر بقوة الصفعة فهجاها هجاء مرا ، قال :

قد علقنا سواك علقا نفيسا
وحرفنا اليه عنك النفوسا
ولبسنا الجديد من خلع الحب
ولم نال أن خلعنا اللبيسا

وهجا خليلها ابن عبدوس معها وكان يلقب بالفار فقال :

عيرتمونا بان قد صار يخلفنا
في من نحب وما في ذاك من عار
اكل شهي أكلنا من اطايبه
بعضا ، وبعضا صفحنا عنه للفار

وطفق يلاحقها في كل علاقاتها منتقما عنيفا ، فيرسل الى خليلها ابن القلاس مثلا يقول :

ولا تطع التي تغريك
فهي لبغيهم أطوع
ولاتك منك تلك الدار
بالمرأى ولا المسمع
فان فصارك الدهليز
حين سواك بالمضجع

فما كان من ولادة ، وقد نزل بها منزلة القحاب والمومسات ، الا ان ردت الكيل بمثله فقالت :

ان ابـن زيـدون عـلي فضلـه
يلهـج بي شتما ولاذنـب لي
يلحظنـي شـزرا اذا جئتـه
كـانني جئـت لاخصى علـى

وعلى هذا ، غلام لابن زيدون ، اتهمته به ، فكـان انتقامها اقسى وافظع فاين هذا من قولها السابق فيـه ء أيام الحب والهوى ؟ !

ترقب اذا جـن الظـلام زيارتـي
فاني رأيـت الليـل اكتـم للسـر
وبي منـك لو كان بالبدر ما بـدا
وبالليـل ما ادجى وبالنجم لم يسـر

ولعلنا نلاحظ من خلال شعره نفسه ، انه كان ضعيفا امام المرأة ، وهو مرض لا تحبه النساء في الرجال ، يقول لولادة مستعطفا :

الـم الـزم الصبر كيمـا اخف
الـم اكثـر الهجر كـي لا امـل ؟!
الـم ارض منـك بغير الرضـى
وابـدي السرور بمـا لـم انـل
الم اغتفر موبقـات الـذنوب
عمـدا اتيت بهـا ام زلـل ؟!

ولعل هذا السلوك التخنثي ، وهذا التذلل ، كـانا من بعض الأسباب في جفوة ولادة وكره هذه العلاقة بينها وبينه ، وهذا الحب الذي لم تر فيه الا غطرسة فارغـة وتذللا حقيرا وذكورة مائعة لا رجولة فيها ولا فحولة .

وبعد ، فهل هذه الامراض النفسيـة التي اكتشفناها في ابن زيدون ، دليل على اختلال توازنه النفسي حقا ؟!

يجب أولا أن نفرق ما بين المرض العقلي والمرض النفسي ونؤكد على أن العلاقة بينهما ليست متلازمـة بالضرورة ، فقـد يكون المرء على أتم ما يكـون نضجا عقليـا ، وهو مـع ذلك مريض نفسيا ، ملجاه عيـادة النفسانيين .

واذا كان فرويد وتلاميذ هوخصومه ، قد توصلوا بالتحليل الى الكشف عن كثير من الأمراض النفسية ، فان القدماء قد توصلوا الىشفاء الكثيرمنها بالتجربة العفوية .

وفي حلقات الذكر والتصوف والتسبيح والتجهد وسائـل مهمة جدا . ولقـد وهبنا عصرنا هذا وسائل جديدة متعـددة ، ففي أنواع الرياضات البدنيـة والمباريات والتنافس والنـوادي ، وتسهيل الأسفار ، والتواصـل الاجتماعي ، وأنواع التسليات الأخرى ما يغني عن كثير من العيادات النفسيـة ، ويخيل الي ، أن لو عاش ابن زيدون في عصرنا ، لشفاه من هذه الغطرسة مقال ينشر عنه في صحيفة مشهورة ، أو دعوة لالقاء شيء من شعره في حفلة ، أو تكريمه باذاعة أو تلفزة ، أو نقد لاذع محكم يوجه الى انتاجه الفني فيؤدبه ويعيده الى صوابه ، كما فعل نقد العقاد بشوقي .

ولاستغنى عن اللجوء الى عيادة نفسانية في أوروبا وأمريكا ، تشفيه من مواقفه الذليلة أمام المرأة ، بجولة في جبال الأطلس الساحر ، أو استرخاء علىشاطىء الرمال الذهبية في أغادير .

المؤسف أننا عاجزون عن استدعائه الى عصـرنا بجسده ، فلا أقل من أن نستعيد ذكراه بالتكريم ، لعـل روحه تروى بعد طول ظمأ ، لكن أين هي الروح ؟!

« يسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

صدق الله العظيم

الـدكتور ممدوح حقي
خبير بالمكتب الدائم
لتنسيق التعريب في الوطن العربي

ابن زيدون

بين العظمة والحب

بقلم مفدي زكرياء

عادني من ظلال أمسك أمسي ... بين ماضي الاسى ، واحلام انسي
وشجاني من ذكرياتك ، كون ... علوي السمات ، أرهف حسي
نرجسي الهوى ، ندى التصابي ... كالاماني الطراب في ليل عرس
خافق الوجد ، في حنايا ضلوعي ... خفقان الجوى ، بأعطاف قس
بين شك محجب ، ويقين ... بين طرد - من الرجاء - وعكس
فتراءت للعين أطياف ماض ... لم يكن للجراح - في العمق - ينسي
فتساءلت - والخوالج شتى - ... أين خلد ، اضاعه يوم نحس ؟
اين لوح الجمال ، من ريشة الله ، بفردوسه **المسام ببخس ؟**
والليالي المرنحات ، السكارى ... والسهارى ، من سامرين ، وخرس ؟
والندامى ، على بساط الخزامى ... بين جهر من الحديث ، وهمس ؟
أين قوس السما .. كأن العذارى ... نمنمت معصم السماء بورس ؟
والاصيل الخجول ، والشفق الباكي ... على العاشق المصاب بنكس ؟
والاماسي المعصفرات الحواشي ... كالعذارى على زرابي فرس ؟
والغدير اللعوب ، يعبث بالوا ... دي ، كما تعبث الشجون بنفسي ؟
ونجوم ، تمشي النميم ، وتسعى ... بين قلبين - في ارتياب ، ولبس ؟
اين زرياب ، والمدامة ، والكاس ، وعذب الغنا ، وآهات جرس ؟
وأنين الغصون ، في بحة العود ، على فرعه المعنى بيبس ؟
أين لحن السماء ، في الملأ الاد ... نى ، شجا كل محسن ، ومخس
اين فجر الزمان ، من عمر المجد ، وركب الجلال يغدو ، ويمسي ؟
وصباح الجمال ، والنور ، والحق ، دها الليل فامحي ، ليس يغسي
والاماني المجنحات اللواتي ... **كن للخافقين ، مطلع شمس ؟**
وشراع الحياة - طوع يديها ... حيثما شاءت (الجزيرة) يرسي ؟
من ينابيع فكرها ، يكرع الغرب ، معينا ما بين شرح ودرس ؟

تغريس الحب والحنان ، فينمو   في ربيع الحياة ، أكرم غرس
عجبا كيف أصبح الشرق يستجدي عطاياه من قنافيد أمس !!

اين شم الانوف ، من آل زيا   د وغسان ، من بهاليل قعس ؟
أن عفوا الدهر برهة ، واقاموا   من دماه لمجدهم خير أس
غير ان الزمان أرعف قوما   كفنوا العار في شغوف الدمقس
واستناموا على بساط الغوايات ، وضلوا عن الاهة الامس
فاشاع الضياع فينا خرابا   جارفا عز صولجان وكرسي

فتهاوت أمية ، بعد بغدا   د ، واودى بمجدها كل نكس
فكأن لم يكن لصقر قريش   في محاريبها ، معابد قدس

لم يصنها ، ابن جهور ، وابن عباد الخليعان ، من ثعالب طلس
وابن عباد ، كان اسطورة الد   نيا ، وان ضاع في متاهات رجس
لم يخنه ، أبو الوليد ابن زيدون ، وان لاك عرضه كل جبس
لا ولا خان جهورا .. وابن زيدون واخلاقه .. كعزة نفسي !

يألف الضيم ، والهوان .. فما ارتا   ع لجن .. ولا استكان لانس
ولو ان الملوك ، صانوا ذماما   لابن زيدون .. كان اعظم ترس

وكذا تفعل الوشايات لما   يرهف السمع للاذل الاخس
وكذا تذبح الكرامة لما   يفقد العقل كل ارعن حلس

وكذا يسقط الجدار ، وينها   ر .. اذا ما أقيم من غير أس
قولة : لن تزال في مسمع الد   نيا تدوي ، على جنازة قدسي
« ابك مثل النساء ، ملكا مضاعا »   لم تصنه مثل الرجال ، بحمس

★ ★ ★

ايها الناس .. لا بكاء على مجد .. وان ضاع .. ما أصيب بطمس
لا تقولوا – تحسرا : – فقد الفر   دوس ، أو خانه الطبيب المؤسي
ها هنا .. لن تزال اندلس الماضي .. تروع الدنا بأمجاد أمس

صان اقدارها – مدى الدهر – عرش   علوي يرعاه امهر نطس
مغربي .. موطن الكرامة والعز ، وما شئت ، من طهارة نفس
والجمال البديع ، والبسمة الخضرا ، وفيض الندى ، ومرتع انس
بلد آمن ، وشعب كريم   وملاذ الاحرار من كل جنس

★ ★ ★

يا بن زيدون اين (اضحى التنائي)   بين مر الاسى ، وحلو التأسي ؟
اين نجواك ؟ واشتياقك للزهراء .. لم تحتمل خيانة حرس
اين ولادة التي تلد الحب .. وتلقيه في غيابات رمس ؟

هل ترقبت حين جن ظلام   في احتشام لقاء ليلى بقيس ؟
زورة بابلية (ودع الصبر محب) أصيب فيها بمس
كان أغرى بها الصبا ، والشباب الغض في كائنين .. من غير عس

اقبلت كالملاك ، في كبرياء   عبقري الخطى ، ليان المجس

وطوى صارخ الجمال حبيبين مع النجم ، في استراق وخلس
في جحيم من لهيبه ، قبلات   من حنايا على ابن زيدون حبس

سائلوا عنهما (ابن بسام) يذكر صبغة الله ، في غطارف شمس
لم يك الشعر في الفساتين يغري أبدا غير عاثر الحظ ، تعس
« أمكن الطامعين من لثم خدي » بارق كالسراب للعين ، يخسي
« ولتكن قبلتي ، لمن يشتهيها » شرك يقنص الذئاب بحدس
أنت مثل الفراش في وهج النور ، جناحاه ، يحرقان بمس
وهي كالماء يستحيل على القبض ، ومثل السراب في رحب دهس
كيف لا يفتن الشباب بناد فيه يستأثر الفتون بخمس
كيف لا يصرع ابن عبدوس حب فيبيع الوفاء ، بيعة وكس ؟

قهرمان ، كأنها الحية الرقطاء تسعى الى اصطياد وفرس
يعثر الحظ بالعجوز .... ولكن ، قلوب الحسان أسواق مكس
وابن عبدوس ، كان أمهر من يصطاد ظبي الحمى بمكر ودس
والرسالات .. بين جد ، وهزل دون جدوى تمحو القديم وتنسي
واذا ما سلا عن الحب قلب لن تعيد الهوى ، طلاسيم طرس
ليتها لم تغن (عتبة) في النادي ، ولم يستعد غناها بهجس
وابن زيدون ، في قلوب الغواني مدره ، مولع بفحص وجس
أبدا ، لم يكن بعتبة ملتاعا . ومن ذا يبيع درا بفلس ؟

انها قصة الغيوم على الحب ، اذا ما الهوى أصيب بوكس
والغواني .. قلوبهن ، من الصخر ، وان كن في رهافة حس

يا ابن زيدون..ان صحا الحلم لا تأس ، ولا تبتئس لاضغاث نعس
ان ظلم الحبيب ، أحلى من الظلم ، تساقاه من مراشف لعس
ومن الظلم ، ما يكون جميلا ينتشي من عذابه المتحسي
انما الحب ، لعبة القدر القاسي ، يلين القلوب .. ثم يقسي

ان من فر في الخفاء ابوها في ثياب النساء .. هيهات ترسى
والتي فضلت عن الليث (فارا) حسبها (الفار) في حقار ونجس
يا ابن زيدون .. كم بلوت الرزايا وتأرجحت ، بين نعمى وبؤس
في صراع مع الحياة .. سجالا بين عز .. وبين أسر وحبس
من وزير ، الى سفير خطير والجراحات بين برء ونكس
نحن في الامر توأمان .. ولو لم أتقلد سوى وزارة نفسي

انت في سجن (جهور) تكبح الظلم .. وأبلوا الردى بسجن الفرنسي
وكلانا ضحية الحب ، والحرب ، بجأش طغى على كل دعس
يا ابن زيدون ، حسب قرطبة الزهرا ، بديلا ، ومعبدا للتأسي
لك فيها عرش القوافي ، ودنياها ، وما شئت من مجالس أنس

ضاربا في دنا العلوم بسهم ضاربا في دنا الفنون بقوس
ان للشعر في حناياك كونا أزلي المدى ، عميق المحس

عشت للذكريات ، يا شاعر الذكرى ، يغاديك طيفها ويمسي
واذا ما أدعى الامارة بعض بايعتك الجموع تحت الدرفس
كم ملأت الدنا ، وكم شغل الناس بما راع كل عصر وجنس
يا ابن زيدون .. ان أقمنا لك اليوم احتفالا بدار نبل وقدس
انما انت خالد .. حيثما ، كنت ، ودفق يمور في كل حس

مفدي ذكرياء

الدار البيضاء ـ المغرب

بنو ذكوان

بقلم
الدكتور احسان عباس



تمهيـــد :

اختلف في أصل بني ذكوان فقال ابن الفرضي ان أصلهم من جيان دون ان يعين نسبهم ، وقال ابن حيان : انهم ـ فيما يقال ـ من برابرة فحص البلوط ، وانهم ظلوا يتولون بني أمية حتى انقرضت الدولة الاموية فانتموا في سليم من قيس عيلان ، وايا كان موطنهم في الاصل ، فانهم استوطنوا قرطبة ـ فيما يبدو ـ زمن هرثمة أو ذكـوان الاقـــرب اذ اننا نجـــد أول مشهوريم وهو عبد الله بن هرثمة يعد من اهالي قرطبة نفسها ، ولا بد ان ارتفاع شأنهم من بعد حتى اصبحوا يسمون « زعماء قرطبة » ، يرتكز الى تأثل وجودهم في تلك المدينة ، ايام الدولة الاموية ، منذ فترة مبكرة استطاعوا فيها اكتساب الشهرة بالمال والعلم حتى قيل فيهم انـهم « اهل بيت فيهم علم ورياسة » ٠

١ ـ جيل الجدود :

كان عبد الله بن هرثمة بن ذكوان ـ وهو أول من تنوه به المصادر من بني ذكوان ـ من العلمـاء باللغـة والنحو ، حافظا للمشاهد والايام ذا مروءة وافرة وعقـل راجح ، ويبدو انه رحل في طلب العلم الى المشرق وادى فريضة الحج ، وقد ولي خطة الرد بقرطبة بعد عبد الملك بن منذر وظل يتولاها حتى توفي في غزوة الصائفة مع المنصور ، صدر رمضان سنة ٣٧٠ـ٩٨١ ، ونقل جثمانه الى قرطبة ودفن في مقبرة بني العباس ٠

٢ـ جيل الابناء :

خلف عبد الله ثلاثة ابناء هم : ابو العباس احمد وأبو حاتم محمد وأبو حفص عمر ، وكان لكل واحـــد منهم دور هـــام في شئون الحيـــاة القضائية والسياسية بقرطبة٠

١ ـ ابـو العباس أحمـد بن عبـد الله بن ذكـوان

(٣٤٣ ـ ٤١٢ / ٩٥٣ ـ ١٠٢٢)

كان أكبر الثلاثة ، ولد في جمـادى الآخـرة ٣٤٣ سبتمبر (ايلول) ٩٥٣ ، وحصل ثقافته بقرطبة اذ لا تذكر له رحلة في طلب العلم ، وكان من أكبر أساتذته القاضي ابن زرب (٢٨١ / ٩٩٢) الذي درس عليه جيل ممن أصبحوا من مشاهير فقهاء العصر ، واصحاب النفوذ بقرطبة وغيرهـا من المـدن الاندلسية ، ويذكـر لسان الدين بن الخطيب نقلا عن القاضي عياض ان الحكم المستنصر لما توفي (٢٦٦ / ٩٦٦) تقدم ابنـه هشام للصلاة عليـه « وتقدم خلفه بارزا عن صف الناس القاضي ابو العباس ابن ذكوان ، ناويا الامامة ، لصغر هشام عن هذه الوظائف» وذلك مستغرب حقا لان ابن ذكوان لم يكن حينئذ قاضيا بقرطبة ، ولو قيل ان الذي قدم للصلاة على الحكم هو القاضي ابن السليم (٢٦٧ / ٩٧٨) أو القاضي ابن زرب الذي تولى قضاء الجماعة بعده لكان ذلك ادق ، الا ان ابن ذكوان كان حينئذ يباشر القضـاء في فحص البلوط ـ وذلك هو اول منصب شغله ـ وانه حضر الى قرطبة عندما بلغته وفاة الحكم ، فقدم للصلاة عليه ، ولما توفي عبد الله والد ابن ذكوان (٣٧٠) ، نقله المنصور ابن أبي عامر من قضاء فحص البلوط ، الى خطة الرد ، وكان استاذه ابن زرب قد رشحه للشورى ، فأصبح الى جانب عمله في خطة الرد فقيها مشاورا ، وقد ظل يمارس الاشراف على تلك الخطة فترة طويلة ، اذ نراه وهو ما يزال يتولاها يصلي على شيخه ابن زرب سنة ٣٨١ ٠

وقضى ابن ذكوان ما يناهز اثنين وعشرين عاما (٣٧٠ ـ ٣٩٢ ـ ٩٨٠ ـ ١٠٠٢) في صحبة الحاجب المنصور ، وأصبح بعد الاختبار من اصحابه المقربين ، فالمنصور يعتمد على مشورة ابن ذكوان في تدبير كثير من شئون الدولة ، ومحل ابن ذكوان لديه فوق محل الوزراء ، وابن ذكوان رفيقه في حله وترحاله ، لا يتخلف عن أية غزوة من غزواته وقد خصص له غرفة في قصره يفيء اليها آخر النهار ويجلس فيها حتى يخرج المنصور فيفاوضه في ما يحتاج اليه ، واحيانا كان يستبقيه فيبيت في القصر .

وكان من أول الامور التي أمتحنت فيها صلابة الفقهاء ، حينئذ مسألة التجميع في مسجد الزاهرة ، وهي المدينة التي بناها المنصور .

وانتقل الى سكناها سنة ٣٧٠ : وقد انقسم الفقهاء في هذه المسألة فريقين : فريق افتى بجواز اقامة الجمعة في المسجد الجديد ـ اضافة الى اقامتها في جامع المدينة (قرطبة) ـ وفريق أفتى بأن الجمعة لا تقام في مصر واحد في جامعين ، وقد وقف القاضي ابن زرب في هذا ضد رغبة المنصور وسانده في موقفه فقهاء كثيرون منهم الاصيلي وابن المكدى وابن صاعد وابن جنى وابنا ذكوان ، ابو العباس وابو حاتم ، وغيرهم ، واخذ فريق آخر من الفقهاء فيهم ابن العطار يجمعون في مسجد الزاهرة ويعيدون الصلاة بعد ذلك ، يتقون بهذا غضب ابن ابي عامر ، ورغم ان المنصور اشتد بعد وفاة ابن زرب على من انكر التجميع مثل ابن وافد واصبغ بن الفرج فانه رضي من ابني ذكوان ان يتمسكا بما رأياه صوابا، فكان اذا احتاج اليهما دعاهما بعد انقضاء الصلاة .

ومن السهل أن ندرك لماذا استطاع ابو العباس ابن ذكوان ان يكسب تلك الثقة الكبيرة لدى المنصور ، اذ ليس السر في ذكائه وسداد رأيه وحسب ، بل في طبيعته المتعففة التي ابت عليه أن يستغل تلك الدالة لقضاء مآربه الذاتية، وفي لباقته كلما اراد أن يحمل المنصور على قضاء حوائج الناس ، فانه لم يكن يتخذ التصريح طريقا الى ذلك بل هو يومىء ويعرض تعريضا كالمنكر أو المستحسن ، « حتى قيل انه ما سأله قط ، على مكانته منه ، حاجة لنفسه ولا لغيره بتصريح مع كثرة ما انقضت على يديه من حوائج الناس » .

وقد مكنته تلك الطريقة وهذه المكانة من أن يكون ناجحا دائما في التنويه بمن يريد ان ينوه به ، وفي الغض ممن لا يريد له ان يكون ذا شأن أو حظوة في الدولة ، وكان ابو العباس قد أصبح قطبا يجذب اليه عددا كبيرا من الاصحاب الذين تلقوا العلم على يديه ، وجريا على خطة شيخه ابن زرب كان يرى ان تقديم اصحاب الكفاية ـ بما لديه من جاه ـ اثر تستدعيه المصلحة العامة والخاصة على السواء ، فهو الذي نوه بأحمد بن الحكم العاملي (٣٩٠ / ١٠٠٠) حتى جعل المنصور يوليه قضاء طليطلة ، وهو الذي قدم يحيى بن عمر بن نابل (٤٠١ / ١٠١٠) الى الشورى ، وكان صديقا آل ذكوان ، وهو الذي قام بتنبيه ابن ابي عامر الى مكانة ابن الحشاء (٤٠٢/١٠١١) وكان ابو بكر ابن زيدون والد الشاعر من اصحابه ، ولا يستبعد ان يكون نال منصب الفقيه المشاور بتنويه منه، واليه يرجع الفضل ايضا في التنويه بأبي عمر المكدي وأبي المطرف بن الحصار (٤٢٢ / ١٠٢١) وعيسى بن معاوية ومحمد بن عمر بن العاص (٤٠٠ / ١٠١٠) أما مناوئوه فأبرزهم ابن العطار ، وكان ينطوي على عجب وشكاسة خلق ، فقام ابن ذكوان بالغض منه ، وتورط ابن العطار في امور اغضبت المنصور واثارت ضده فقهاء آخرين .

وفي تلك المدة ثارت بقرطبة أمور جدلية استحدث بعضها الفقيه ابو بكر بن موهب الحصار القبري (٤٠٦ / ١٠١٥) منها اثبات نبوة النساء وان مريم كانت نبية وان الخضر لا يمكن ان يكون مخلدا ، وانقسم الفقهاء ازاء هذه المشكلات في فريقين يتنازعان بشدة ، مما اضطر ابن أبي عامر الى ان ينفي القبري وجماعة معه الى العدوة ، رغم ان ابن ذكوان كان من الذين ايدوا القبري ، اذ كان لابن ذكوان فيه رأي حسن ، فهو يقدمه على فقهاء وقته وعلى نفسه ويرغب في دعائه ، والقبري يعرف حقه ويثني عليه .

وعلى اثر وفاة ابن برطال قاضي الجماعة ، وهو خال المنصور ، عين المنصور ابن ذكوان في مكانه ، مع تلقيبه بقاضي القضاة (بدلا من قاضي الجماعة ، وذلك في ١٤ محرم ٣/٣٩٢ ديسمبر (كانون الاول ١٠٠١) ،

وكان هذا تتويجا للمكانة العالية التي كان يحتلها في الدولة وقد استمر في منصبه هذا طوال الفترة الباقية من عهد المنصور ، ثم عهد ابنه المظفر عبد الملك حتى ٣ ذي الحجة سنة ١٠٠٤/٢٩٤ وفي غضون ذلك فلج ابن الشرقي وكان صاحب الصلاة ، فجمعت الخطتان لابن ذكوان غرة جمادى الاولى ٢٩٤ / ٢٥ فبراير (شباط) ١٠٠٤ وحافظ الرجل على سيرته الاولى في التنويه بأصحابه والغض من مناوئيه فمن الذين شملهم برعايته ابو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن زويع (أو زويعة) ، فقدمه المظفر الى قضاء سبتة بارشاد ابن ذكوان اليه وهو الذي اتاح للمقرىء الاندلسي مكي بن أبي طالب (٤٢٧ / ١٠٤٥) الطريق الى الشهرة ، فقد عاد مكي الى قرطبة سنة ٢٩٢ / ١٠٠٣ ايام المظفر فلم يأبه به أحد ، حتى تنبه له ابن ذكوان « فأجلسه في المسجد الجامع فنشر علمه وعلا ذكره ورحل اليه الناس » ومضى ابن ذكوان أيضا في الغض من خصمه ابن العطار ، وخاصة حين زاد شأن ابن ذكوان علوا ايام المظفر فازدادت غضاضة ابن العطار ٠

وأصبح ابن ذكوان بعد وفاة المنصور ملازما للمظفر كما كان ملازما لابيه من قبل ، فهو يرافقه في الغزوات كما يرافقه في بعض تنقلاته في قرطبة ونراه في احدى المرات يرافقه لزيارة الشيخ الزاهد ابي ايوب القريشي ، وهو جليسه في القصر وصاحب الرأي والتدبير وقد ظل محتفظا بهذه المكانة الى ان اصطدمت نزاهته باثرة وزير الدولة عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع ، اذ اشترى الوزير ضيعة من أحد أبناء ابن السليم ، فحكم القاضي بفسخ البيع لان البائع كان سفيها ، فغضب الوزير من ذلك وأخذ يتحين الفرصة لتغيير قلب المظفر على قاضي القضاة وكان الوزير قد أوجد بجشعه الى التملك كثيرا من المناوئين، التفوا حول طرفة الصقابي احد فتيان المظفر ليقاوموا طغيان نفوذ الوزير ، وكان ابن ذكوان ذا منزلة كبيرة عند طرفة ، ولما علا شأن هذا الفتى وصار اليه الامر والنهي تعطل حال الوزير ، وخاصة حين كان المظفر يعاني من مرض الزمه الفراش اشهرا فلما ابل من مرضه وجد طرفة قد تصرف في كثير من الامور دون اذن منه ، فتغير عليه وحبسه واعاد للوزير ابن القطاع مكانته السابقة، فسنحت الفرصة للوزير كي ينتقم من ابن ذكوان ، فأبلغ المظفر ان ابن ذكوان واخاه كانا ضالعين مع طرفة ، فصرف ابو العباس عن القضاء والصلاة كما صرف اخوه ابو حاتم عن المظالم ٠

بقي ابو العباس تسعة اشهر معزولا عن القضاء وحل محاله في القضاء ابو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن فطيس (٤٠٢ / ١٠١٢) وكان رجلا معروفا بالصلابة في الحق ، وقد شهد له ابن حزم بأنه كان واحد زمانه في جمع الحديث وروايته ، وشمت ابن العطار الخصم القديم بما حل بابن ذكوان ، فدخل على ابن فطيس يهنئه بالمنصب قائلا :

« الحمد لله الذي سلبها كسرى والبسها سراقة ، وصرفها عن أهل الكفر والجهل ، وجعلها في أهل العلم والفضل » ، ولكن يبدو انه لم تمض الا مدة يسيرة حتى وجد ابن العطار ان ليس لدى القاضي ما يؤيد تلك الحماسة ، مما اضطره ان يقول من بعد « عدو عاقل خير من صديق احمق » ، ولم يكن يشارك ابن العطار كثيرون في شماتته بابن ذكوان ، بل كان معظم من عرفوه يحسون بالاسف الشديد لعزله حتى « من القضاء اليه » كما يقول القاضي عياض ، فما لبث المظفر ان اعاده الى منصبه ، فظل يتولى القضاء والصلاة حتى الخامس من جمادى الاولى سنة ٤٠١ / ١٥ ديسمبر (كانون الاول) ١٠١٠ ، عندما تعرض هو واخوه للمحنة (وذلك ما سيجيىء الحديث عنه في موضعه) ٠

وقد صفا الجو لابي العباس عندما تخلص المظفر من وزيره ابن القطاع وقتله،وخلاصة ما حدث ان ابن القطاع حاول القيام بانقلاب على المظفر ، بالاشتراك مع هشام بن عبد الجبار بن الناصر الاموي ، واعد رجالا للفتك بالمظفر، وقد تسرب خبر المؤامرة الى ابي حاتم ابن ذكوان، وكان يومئذ قد أعيد الى المظالم لدى عودة اخيه الى القضاء، فلم يبطىء ابو حاتم في نقل الخبر الى المظفر ، وقيل ان ابا حاتم لم يخبر المظفر بنفسه ، وانما افضى بالخبر الى فقيه كان ذا منزلة عند الزلفاء ام المظفر فدخل الفقيه عليها واخبرها بجلية الامر، فأسرعت في ابلاغ ابنها بذلك، وأكدت على ضرورة قتل ابن القطاع ، وكان لدور ابي

حاتم في هذه الحادثة اثر في نفس ابن عبد الجبار الذي أصبح ينفر من ابني ذكوان وضمر الحقد لهما .

وبعد ذهاب الوزير أصبحت أمور الدولة تجري بحسب رأي أبي العباس ولا يتم منها شيء الا عن مشورته، ولما توفي المظفر ، (٢٩٨ / ١٠٠٨) وخلفه اخوه عبد الرحمن شنجول الملقب بالناصر وبالمأمون بقي ابن ذكوان على حاله من الرفعة وزاده شنجول خطة الوزارة فأصبحت كتبه تصدر مبدوءة بهذه العبارة « من الوزير قاضي القضاة » وبذلك جمع ابو العباس بين لقبين لم يجتمعا لاحد قبله ، وبعد شهر ونصف من ولاية شنجول أخذ هذا يسعى لدى الخليفة هشام المؤيد للحصول على ولاية العهد لنفسه ، وذلك كان يعني تحويل الخلافة من الامويين الى العامريين ، وكان ذلك الطموح الارعن فتحا لباب الفتن المتعاقبة التي نجم عنها زوال الدولة الاموية وتصدع الوحدة الاندلسية،فماذا كان موقف ابي العباس من محاولة شنجول ؟ ان ارتباط بني ذكوان بالعامريين يمكن ان يسعف على القول بأن « الوزير قاضي القضاة » وجد نفسه مندفعا لنقل الخلافة اليهم ، وبحكم منصبه ، وربما بحكم حماسته لتحقيق ذلك ، نجد توقيعه على العهد من هشام لشنجول في رأس التوقيعات .

الا ان المسألة لا يتم فيها القطع بهذه السهولة ، ذلك لان الروايات التاريخية منذ هذه الحادثة تسير في خطين متعارضين عند الحديث عن المواقف والميول السياسية لدى ابن ذكوان ، فأما أحد هذين الخطين فيبدو انه يمثل رأي بعض انصار الامويين ، وفيه ارائه لمواقفه ، واما الثاني فيبدو ان اصحابه من أصل بربري ، وهو يميل الى تسويغ مواقفه ، الا حين تصطدم مباشرة مع مصالح البربر في فترة الفتنة ، ونقرأ في الحلة السيراء لابن الابار: « وجد في ذلك السعي الخبيث (أي تحويل الخلافة الى شنجول) ابو العباس ابن ذكوان القاضي وابو حفص ابن برد الكاتب حتى قال فيهما ابن ابي يزيد المصري :

ان ابن ذكوان وابن برد   قد ناقضا الدين بعد عمد
وعاندا الحق اذ اقاما   حفيد شنجه ولي عهد

وروى الرقيق في كتابه عن محمد بن يعلي الزناتي – وكان في البداية من اصحاب شنجول ثم تخلى عنه – بلغه ان القاضي ابا العباس ابن ذكوان « كان يتبرأ من عبد الرحمن(أي شنجول)ويفسقه ويكره ويستعظم ما يدعو الناس اليه من قتال جماعة المسلمين بقرطبة » وهاتان الروايتان رغم تعارضهما الظاهري متكاملتان لانهما تشيران الى مرحلتين : سابقة ولاحقة ، ففي المرحلة الاولى كان ابن ذكوان متحمسا لنقل ولاية العهد الى شنجول ، غير مقدر للنتائج المترتبة على تلك الخطوة الخطيرة ، وفي المرحلة الثانية وجد نفسه مع شنجول في قلعة رباح ، بينما ابن عبد الجبار يعلن الثورة في قرطبة ، وشنجول يريد ان يتحرك بجيشه لاخماد الثورة ، فتتضح خطورة الوضع للوزير قاضي القضاة ، ويبدأ بالتبرؤ من عبد الرحمن خصوصا بعد ان عرف مدى استهتاره وفسقه ، ولذا فهو ينكر ان يتحول الجيش لقتال « جماعة المسلمين بقرطبة » ويخلو به محمد بن يعلي الزناتي يستطلع رأيه ، فيجد التقارب بينهما شديدا ، ويأخذ القاضي عهدا على ابن يعلي الا يقاتل عن شنجول لا هو ولا أي واحد من زناتة ، ويبدو على القاضي السرور عندما يعده ابن يعلي بالوفاء بعهده ويتخلى أكثر البربر عن شنجول – وهم عظم جيشه – ويعودون الى قرطبة ، ويعود ايضا القاضي ابن ذكوان مع وجوه الصقالبة العامريين ووجوه الاندلسيين ، وشنجول يعتقد أن القاضي لدى عودته سيأخذ له امانا من ابن عبد الجبار ، ولكن القاضي بدلا من ذلك يحمل – امام ابن عبد الجبار – حملة شديدة على شنجول مستنكرا لفعله .

وقتل شنجول واستتب الامر لابن عبد الجبار الذي كان يضمر حقدا لابن ذكوان لاسباب منها (أ) موقف أخيه أبي حاتم من كشف المؤامرة ايام ابن القطاع (ب) وشدة ميل ابن ذكوان الى العامرية ، وهذا يعني انحرافه عن بني أمية (ج) وبعض احكام قضائية اجراها لم يرضها ابن عبد الجبار ويبدو ان وقفة ابن ذكوان الصارمة ضد شنجول لم تنفعه كثيرا لدى ابن عبد الجبار الذي تلقب بالمهدي وبويع بالخلافة الا ان مقام القاضي عند أهل قرطبة حال بين المهدي وبين التنكيل به ، فأكتفى بأن اسقط عنه لقب قاضي القضاة وسماه « قاضي الجماعة » .

وكانت خلافة المهدي تعني ان هشاما المؤيد لم يعد خليفة ، ومن هنا تبدأ تلك المسرحية في تاريخ الاندلس التي مات المؤيد فيها عدة مرات ، وكانت أولى ميتاته ان اتى المهدي بجثة رجل يشبهه وادخل الناس ليروها ويشهدوا بذلك ، واحضر القاضي ابن ذكوان والفقهاء والعدول فصلوا على هشام ، ولكن المهدي لم ينعم طويلا بثمرات هذه المهزلة ، اذ قام عليه ثائر من البيت الاموي هو هشام بن سليمان ابن الناصر ، وحاول ابن ذكوان وابو عمر بن حزم ـ مرسلين من طرف المهدي ـ التوسط في الامر، فقابلا هشاما وعاتباه وقبحا ما هو مقدم عليهوحذراه سوء العاقبة فلم يأبه لما قالاه وأمعن في لجاجه،فيئسا منه وعادا ادراجهما واختلت الاحوال بقرطبة وقتل هشام ، وحدث صداع في صفوف الجند لم يكن رأبه ممكنا ، اذ انحاز جند البربر في فئة ، وانحاز عامة قرطبة في فئة أخرى ، وحرض المهدي العامة على البربر ، رصد جائزة لكل ما يأتيه برأس بربري ، والتف البربر حول زعيم جديد من بني امية هو سليمان بن حكم الذي لقب من بعد بالمستعين ، وطلب المهدي الى ابن ذكوان ان يسير الى البربر ويفاوضهم فاعتذر ، وحين الحت جيوش البربر على قرطبة عاد المهدي يكرر رجاءه الى ابن ذكوان ويستحثه على التوسط لدى البربر ، فاستجاب لرجائه وذهب ليؤكد للبربر ان المهدي لم ينتحل خلافة لنفسه ، وانما هو نائب لهشام المؤيد ، وتضاحك البربر من هذا القول وقالوا للقاضي : « سبحان الله يا قاضي ، يموت هشام بالامس وتصلي عليه أنت وغيرك ، واليوم يعيش وترجع الخلافة اليه ؟ » ، فاضطر القاضي الى ان يعتذر ويعود دون ان يحقق شيئا .

وهكذا عرضت الفتنة ابن ذكوان الى أمور لا تتناسب وجلال منصبه حتى تجرأ عليه عامة قرطبة يطلبون اليه ان يدفع مال الاحباس الى الافرنج الذين استعان بهم المهدي لعلهم يدفعون خطر البربر عن المدينة ، وحين رفض الانصياع الى مطلبهم كسروا باب المقصورة وأخذوا ما فيها من اموال ودفعوها الى الافرنج ، وفي موقف آخر اضطر ان يسلم الحصون التي استولى عليها الحكم المستنصر والمنصور ابن أبي عامر وابنه المظفر الى أحد القمامسة ، وذلك بعد مقتل ابن عبد الجبار وعودة الخلافة الى هشام المؤيد .

ولا بأس ان نتوقف هنا قايلا لنتأمل في شخصية ابن ذكوان ، فان الرجل عاصر مرحلتي الصعود والانحدار في مقدرات قرطبة ، وبذل جهدا مخلصا في محاولة لم الشعث والقضاء على النزاع والفرقة في المرحلة الثانية ، ولكن الظروف كانت أقوى من وجوده ، واسرع في تطورها من ان يستطيع ايقافها عند حد ، ومع انه اشترك في بعض الاخطاء السياسية فانه ظل في المرحلتين القاضي النزيه العفيف اليد الصليب في الحق المشهور بالوقار والهيبة حتى انه « كان اذا قعد للحكم في المجلس وهو غاص بأهله لم يتكلم احد منهم بكلمة ولم ينطق بلفظة غيره وغير الخصمين بين يديه، انما كان كلام الناس بينهم ايماء ورمزا الى ان يقوم القاضي » وقصة تطاول ابي بحرانس بن أحمد بن فرج الجياني على خصمه في أحد مجالس ابي العباس تؤكد هذهالهيبة ولا تنقضها ، وقد عرف الناس فيه هذه الهيبة ، كما عرفوا فيه صلابته في الحق وبراءته من الريبة فحادوا عن مذاكرته اجلالا له وتحاموا توجيه الاسئلة اليه ، وكان مشيرا مشهورا برجاحة العقل حتى قيل فيه انه « اكمل رجالات الاندلس واتمهم عقلا » ولا يمكن تقدير هذا الدور لديه على نحو واضح ، ولكن لا ريب ان الدولة العامرية في عهد المنصور والمظفر قد وجدت في سداد رأيه سندا قويا ، وحين ترجم له ابو الخيار الشنتريني ـ كان ما بينهما سيئا ـ لم يستطع ان يعيبه بشيء سوى ان خبرته الطويلة في تصريف الاحكام كانت اكثر من علمه ، انه لم يتعمق كثيرا في الفقه المالكي ولم يتوفر على الحفظ .

ب ـ ابو حاتم محمد بن عبد الله بن ذكوان (٣٤٤ ـ ٤١٤ / ٩٥٥ ـ ١٠٢٢) :

وكان أيضا كأخيه ابي العباس من اصحاب ابن زرب عليه تفقه وولاه ابن زرب الشورى بقرطبة مع قضاء قريش ، عمل في عدة كور وفي عهد المظفر كان هو صاحب احكام المظالم بقرطبة ، كان على بصيرة بالفقه أقل من أخيه علما ، الا أنه كان محدثا بارعا مغريا في حكاياته ، واطلق من اخيه لسانا ، وصنوا له في حسن السيرة والنزاهة

ونصرة الحق ، وكان ينوب عن أخيه في القضاء اذا خرج ابو العباس في المغازي ، وقد تقدم الحديث عن عزله منصبه ايام المظفر حين عزل أخوه ، وعن دروه في كشف المؤامرة التي دبرها ابن القطاع ، ولا تشير المصادر الى أي دور واضح له بعد محاولة شنجول في تحويل الخلافة الى نفسه وارتطام الاندلس في الفتنة ٠

ج ـ ابو حفص عمر بن عبد الله ابن ذكوان (٤٠٣ / ١٠١٣) :

توفي قبل أخويه (آخر يوم من ذي الحجة سنة ٤٠٣ ـ ١٢ يوليه (تموز) ١٠١٣) لكن يبدو انه كان اصغر الثلاثة سنا ، اذ لم يبرز له دور في الاحداث التي شارك فيها اخواه انما يظهر في فترة الفتنة ، وكان ذا ميول أدبية ، وقد حصل مرتبة الوزارة قبل عهد المهدي ابن عبد الجبار فلما انتقم المهدي من اخيه ابي العباس عمد الى ابي حفص فصله عن تلك المرتبة ، ويبدو أن هذا هو السبب الذي جعله يلقي بنفسه في الفتنة الى جانب سليمان المستعين ويحارب في صفوفه ، كما سأبين في الفقرة التالية :

نكبة بني ذكوان الاولى :

بعد مقتل المهدي ابن عبد الجبار وعودة الخلافة الى هشام المؤيد أصبح الفتى واضح الصقلبي الذي قضى على حليفه السابق ابن عبد الجبار هو الحاجب المصرف لشئون الدولة ، وأخذت غارات البربر على قرطبة تتواتر وتشتد وغدت المدينة تحت رحمة المغيرين ، ويبدو ان القاضي كان ما يزال يعتقد ان المقاومة ممكنة ، ولهذا وعد القرطبيين حين شكوا حاجتهم الى المال والعدة بتقديم خمسمائة فرس من مال الاحباس ، ولكن ضعف اهل قرطبة عمليا عن حماية مدينتهم والدفاع عنها ، رغم الايمان التي حلفوها بأن يكونوا يدا واحدة ضد البربر ، قد مال بأبي العباس الى ايثار السلم والمصالحة ، وقد ساءته تصرفات الحاجب واضح فيقال انه نصح هشاما بأن يكف بعض غلواء واضح ،وبلغت هذه النصيحة اذن الحاجب فحرض هشاما على بني ذكوان زاعما انهم يميلون الى البربر ، اي الى حزب سليمان المستعين ، فما هو يا ترى نصيب هذه التهمة من الصحة ؟

لا بد ان نتذكر هنا ان بني ذكوان كانوا ـ في الارجح ـ من أصل بربري ، ولكن لم يكن لعصبية الدم أثر في توجيه ميولهم السياسية ، فقد والوا العامريين مدة طويلة ، وكان الموالي العامريون اثناء الفتنة يلتفون حول الخليفة هشام المؤيد ضد البربر والمستعين ، وعلينا ان نستثني هنا موقف أبي حفص بين الاخوة الثلاثة ، فانه جاهر بالانضمام الى سليمان ووزر له ، لا حبا في البربر ـ فيما اعتقد ـ وانما نكاية بالمهدي الذي حطه من مرتبة الوزارة ، وكان مع سليمان في معركة عقبة البقر (٤٠٠ / ١٠١٠) ولما انهزم سليمان وجيشه ، اجفل أبو حفص مع المنهزمين حتى صار الى الزهراء ٠

فلما بدا فيها سليمان عندها وصاح ابن ذكوان فثار رجال ، فأما اخواه ابو العباس وأبو حاتم فلم يشاركا في تلك الاحداث ، ولكن سلامة قرطبة ، وانقاذ الاوضاع المتردية فيها ، والرغبة في الاصلاح بين فئتين من المسلمين هي الحوافز التي كانت تدفعهما الى ايثار الصلح ، غير ان الصلح لم يكن ليعقد دون ثمن ، وكان ذلك الثمن هو خلع هشام والدخول في طاعة سليمان واتباعه البربر ، فاذا وضع الامران فيكفتين : المصلحة العامة أو خلع هشام، رجحت الكفة الاولى ، حتى وان كانت العامة بقرطبة غاضبة ناقمة لا ترى انتهادن البربر أو تصالحهم، وتصرح المصادر بأن ابني ذكوان كانا من يرغب في الصلح مع طائفة من الفقهاء منهم ابن حوبيل وابن الشقاق وابن دحون ، وكان يناوؤهم فريق آخر من الفقهاء على رأسهم ابن وافد وابن الفخار ، فاذا اجتمع هذا الميل الى موقف ابي حفص من تأييد المستعين تأييدا مطلقا ، ثم الى النصيحة التي اسداها ابو العباس في شأن واضح لم يبق شك في ان بني ذكوان لن يكونوا محط رضى هشام وحاجبه ، ولهذا لا غرابة في ان يحل عليهم سخط هشام فيأمر بنفيهم ، وينتهز حاجبه الفرصة فيقبض عليهم ، ويخرج الاخوة الثلاثة من

قرطبة ، ويوكل بهم من يوصلهم الى المريـــة ، وهنالك وضعوا في قارب بعد ان خلفوا دوابهم وثيابهم ، واقلع

بهم القارب وقت ارتجاج البحر وعنف الموج ، الا انهم وصلوا وهران سالمين •

وكان وقع نفيهم في نفوس محبيهم من أهل البـلد

عميقا ، وتأثر بعض اصدقائهم لما حل بهم تأثرا بالغا ،

فيقال ان ابا عمر ابن المكوي انما توفي لتأثره الشديد

على أصحابه بني ذكوان زعماء قرطبة عند نكبتهم اذ توفي بعد تسييرهم عن الاندلس بيوم واحد ، كما يقال ان ابا

القاسم ابن نابل صديق بني ذكوان اعظم ما اصيبوا به

ولحقه جزع عظيم اختلط من اجله فاحتجب ستة أيام ،

وقد قلده هشام خطة الرد وهو عليل فجاءته الولاية في

اليوم الذي توفي فيه ، وكانت وفاته بعد الحادثة على بني ذكوان بخمس عشرة ليلة وبعد وفاة ابن المكوي بأثني

عشرة ليلة ، وقد يكون في سرد مثل هذين الحادثتين ربط

بين امرين حدثا اتفاقا ، دون علاقة حتمية بينها ، غير ان دلالتهما رغم ذلك لا تنقض •

ويصور القاضي عياض شدة وقع تلك الفتنة بقوله:

« وقامت لنكبتهم بقرطبة القيامة ، وعظم على الخاصـة والعامة ما جرى عليهم » ويقول في موضع آخر « وذهلوا

لعظمهم في انفسهم » ، ولكن التغريب لم يطل كثيرا ، فقد

كان امتعاض كثير من أهل قرطبة لنفيهم يمثل عامل ضغط

على الخليفة لارجاعهم ، وأصبح ذلك ميسرا حين ثار الجند بواضح وقتلوه ، وبذهابه ذهب من كان يسند الخليفة

في سخطه عليهم ، فاسترجع بنو ذكوان الى قرطبة بعد ان

عاشوا في المنفى عاما أو يزيد ، وعادوا ونار الفتنة لم تخمد بعد •

ولما استولى المستعين على قرطبة (٤٠٣ / ١٠١٣)

خرج اليه ابو العباس بن ذكوان واخذ منه امانا للناس ،

وكان المستعين يقدر ابا العباس ويجله ، فقد عرفه حين

احتل قرطبة أول مرة واستبقاه قاضيا ، وكان يقدر فيه

ميله الى المصالحة ، ويعلم ماله من منزلة عند البربر ، كما لم ينس موقف أخيه ابي حفص الى جانبه ، وجهد بــه

المستعين ليتولى القضاء فامتنع ، وكذلك رفض اخوه كل

منصب مع تكرار رغبة خلفاء عهد الفتنة في الاستعانة بهما،

الا انهما ظلا مستشارين مؤتمنين في كثير من الشئون ،

وظلت منزلتهما بقرطبة عالية حتى وفاتهما،ولم يطل العمر بأبي حفص بعيد عودته من المنفى واستتباب الامر لصاحبه

المستعين ، فتوفي وصلى عليه اخوه ابو العباس ودفن في مقبرة اسلافه ، وظل ابو العباس متميزا في قومه ، ظل

« عظيم أهل الاندلس قاطبة واعلاهم محلا » الى ان ادركته منيته وصلى عليه اخوه ابو حاتم ودفن في المقبرة نفسها

يوم الاحد لتسع بقين من رجب ٤١٣/٢٠ اكتوبر (تشرين

الاول) ١٠٢٢ ولم يتخلف عن جنازتـه كبير أحـد من الخاصة والعامة ، وشهدها الخليفة الحمودي يحيى بن

علي ، وعاش ابو حاتم بعده سنة وشهرين واياما ، ودفن صلاة العصر من يوم الاربعاء منتصف شهر رمضان سنة

١/٤١٤ ديسمبر (كانون الاول) ١٠٢٣ وصلى عليـه القاضي عبد الرحمن بن بشر •

ولما توفي ابو العباس رثاه شعراء قرطبة ، فقال ابن الحناط الضرير في رثائه :

عفاء على الايام بعد ابن ذكوان

وقبحا لدنيـا غيرت كل احسان

ومنها :

احقا سراج العـلم أخمده الردى
وهدم ركن الدين من بعد بنيـان

وغودر في دار البـلى علم الهـدى
مزعزع آساس مضعضع بنيـان

ورثاه ابو عامر ابن شهيد بقصيدة قال فيها :

اذا لم تجـد الا الاسى لك صاحبـا

فلا تمنعن الدمـع ينهـل ساكبا
هوت بأبي العباس شمس من التقى

وامسى شهاب الحق في الغرب غاربا

ومنها معزيا اخاه ابا حاتم :

ابا حاتم صبر الاديب فانني
رأيت جميل الصبر احلى عواقبا

لئن أفلت شمس المكارم عنـكم
لقد اسارت بدرا لهـا وكواكبا

اما المراثي التي قد تكون قيلت في اخيه ابى حاتم

فلم يصلنا منها شيء •

٣ ــ جيل الحفدة :

أ ــ اشتهر من ابناء ابي العباس ابن ذكوان ابنه ابو بكر محمد (٣٩٥ ــ ٤٣٥/١٠٠٤ ــ ١٠٤٣) لدة ابن زيدون ، تلقى العلم على عدد من شيوخ قرطبة منهم يونس بن عبد الله بن مغيث ، (٤٢٩/١٠٣٨) وابو المطرف القنازعي ، (ــ ٤١٣/١٠٢٢) وقد شاركه في الاخذ عن هذين الاستاذين ابو الوليد ابن جهور ، ولا استبعد ان يكون ابن زيدون قد شارك صديقيه في الاخذ عنهما ، وان لم تصرح المصادر بذلك ، وشملت ثقافة ابي بكر الحديث ايضا ، واخذ نجمه في الظهور ولما يبلغ العشرين من سنه ، فقد اسماه يحيى بن حمود (بويع سنة ٤١٢) للوزارة اثر موت أبيه بقليل ، وقد شغف بجمع الكتب واقتنى منها اغرائب فلم يكن بالاندلس أحد من نمطه اكثر كتبا منه ، ولما تولى المعتمد الرداني الخلافة (٤١٨ ــ ٤٢٢) ولاه خطة المظالم الخاصة ، وفي سنة ٤٢٩ توفي استاذه قاضي الجماعة ابو الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث ، فأشار الناس على ابي الحزم ابن جهور صاحب قرطبة بتولية ابي بكر القضاء « واجمعوا على انه في الكهول حلما وعلما ونزاهة وعفة وتصادقا ومروءة وثروة » ولكنه امتنع عن تولي القضاء حتى اشتد الحاح الناس عليه فقبل وأراد ان يجري في القضاء على سنة ابيه في الصلابة ونصرة الحق دون أن يخشى في الله لومة لائم ، واثبت انه صلب القناة حمي الانف ، ينصر المظلوم ويقمع الظالم ويرد المظالم من عند اهلها ، وتختلف المصادر في تقدير موقف الناس منه في فترة القضاء فبعضها يشير الى ان الناس حمدوا احكامه وشكروا افعاله وبعضها يتحدث عن ضيق الناس بصرامته واجماعهم على مقته ، ويقول بعض المصادر انه صرف عن القضاء ، وربما قرنت هذه المصادر صرفه ذلك بصلابته ازاء ابي الحزم الذي طلب اليه ان يأخذ مال الاوقاف لينفقه على المصالح فلم يوافقه القاضي على ذلك رغم الحاح ابن جهور ، ويقول بعضها الآخر انه لما احس استثقال الناس من تشدده في العدالة عزل نفسه غرة شعبان سنة ٤٣٠ / ٢٨ ابريل (نيسان) ١٠٣٩ ، فكانت مدته في القضاء سنة الا ثلاثة ايام ·

ويبرز ابن بسام جانبا آخر من شخصيته وذلك هو ميله الى الدعابة في خلواته والرقاعة في نشواته ، ويشبهه بالقضاة الذين كانوا يسامرون المهلبي الوزير ، ومعنى ذلك ان ابا بكر كان يمارس ازدواجية في السلوك ، فهو اذا خلا الى اصحابه انتشى واستمرأ الدعابة والهزل ، فاذا ذهب الى مجلس الحكم « فكأنما في برديه الانام ، وكأنه وقار يذبل أو شمام حتى اذا راح الرواح عادوا الى القصف ، وتجاوزوا في ميدانهم كل وصف » وكان اللذان يشاركانه في هذا اللون من الحياة صديقيه ابن زيدون وابا الوليد ابن حزم ، واخشى ان يكون ابن بسام هنا يحاول ان يرسم نموذجا يحكي الانموذج المشرقي لطرافة ذلك الانموذج في ذاته ولكنه مشرقيا في آن معا ، ذلك لان هذا الوصف لا يطابق قوله في موضع آخر يصف فيه ابن ذكوان « فجاء أحوذيا نسيج وحده في فضله وعلمه وعفته » ·

وبعد استعفاء ابن ذكوان (أو صرفه) مضت مدة غير قصيرة على قرطبة واحكام القضاء معطلة فيها (أي حتى أول سنة ٤٣٢) ، وضج الناس الى ابي الحزم ابن جهور فولى محمد بن عبد الله بن احمد المعروف بابن المكوي (٤٤٨ / ١٠٥٦) وكان ابوه من اصدقاء بني ذكوان دون ان يطلق عليه اسم القضاء ، وقد ظهرت منه صرامة وتصرفات أدت الى تنحيته ، (ربيع الاول ٤٣٥ / ١٠٤٣) وهذا القاضي هو الذي امر بسجن ابن زيدون ، وحين صرف عين مكانه ابو علي ابن ذكوان ، الذي سيرد ذكره في ما يلي ·

وقد توفي ابو بكر بن ذكوان يوم الثلاثاء ٣ ربيع الاول سنة ٤٣٥ / ١٠ اكتوبر (تشرين الاول) ١٠٤٣ ، وله من العمر اربعون سنة الا اربعة اشهر ، ودفن ضحو يوم الاربعاء بمقبرة ابن عباس ، وحزن الناس لفقده ، واحتشدوا في جنازته فلم يتخلف عنها كبير أحد ، وكان صديقه ابو الوليد ابن جهور في مقدمة مشيعيه ويقول ابن حيان في تصوير عظم المصاب به « وبمهلكه انهدم بيت بني ذكوان » ، ورثاه صديقه ابن زيدون بقصيدته الطويلة ، يبدو انه قالها بعيد فترة من وفاته حين مر على قبره في لمة من اخوانه ، وفيها يقول :

من للمعلوم فقد هوى العلم الذي
وسمت بـه انواعهـا الاغفال

من للقضـاء يعـز في اثنـائه
ايضاح مظلمـة لهـا أشكال

ودعت عـن عمر عمرت قصيره
بمكـارم اعمـارهن طـوال

وهو يقرن ذكره بذكر ابي الحزم ابن جهور ، اذ كانت المدة بين موتهما اقل من شهرين فيقول :

ان النعـي لجهـور ومحمـد
ابي الغمـام فدمعـه منثـال

شكلان ان حم الحمـام تجاذبا
لا غرو ان تتجاذب الاشـكال

ويرق تعبيرا وعاطفة حـين يستلهم أيام الصداقة الجميلة :

هيهات لا عهـد كعهدك عائـد
اذ أنت في وجه الزمان جمـال

فاذهب ذهاب البرء اعقبه الضنى
والا من وافت بعده الاوجـال

حيا الحيا مثواك وامتـدت عـلى
ضاحى ثراك من النعيم ظـلال

واذا النسيم اعتل فاعتامت بـه
ساحاتك الغـدوات والآصال

ويختمها بتعزية يوجهها الى بني ذكوان :
ايها بني ذكوان ان غلب الاسى

فلـكم الى الصبر الجميـل مآل
ان كان غاب البدر عن ساهوره

منـكم وفـارق غابـه الرئبـال

١ ـ اما ابو حاتم فنعرف من ابنائه ثلاثة :

أ ـ ابو على حسن بن محمد بن ذكوان (٤٥١ / ١٠٥٩) :

كان مولده في حدود ٣٦٨ / ٩٧٦ وفي الفتنة اصبح واليا للحسبة أو احكام الشرطـة والسوق ولمـا ولي ابو الوليد ابن جهور رقاه الى القضاء بعد ابن المكوي ايثارا لا استحقاقا ، ولعله نظر في ذلك الى طول دربته في تصريف الامور ، وكان رجلا عفيفا ذا نزاهة صارما في احكامه مستغنيا بثروته الا انه كان قليل الحظ من العلم والادب، خشن الطبع شكسا في خلقه وقد حدثت في قرطبة احداث أدت الى قبض يده عن القضاء فعزل في ربيع الاول سنة ٤٤٠ / ١٠٤٨ والزم منزله الى ان توفي يوم الثلاثاء ١١ ذي القعدة سنة ٤٥١/٢٠ دسمبر (كانون الاول) ١٠٥٩، ودفن بمقبرة العباس وكانت سنه يوم توفي بضعا وثمانين سنة ، أما عمله في القضاء فقد استغرق زهاء خمسة أعوام وجمع له مـع القضاء الصلاةوالخطبة ٠

ب ـ ابو العباس احمد بن ابي حاتم بن ذكوان :

انهضه يحيى الحمودي (٤١٢ / ٤١٣) الى الوزارة بعد وفاة عمه الشيخ ابي العباس ابن ذكوان ، ومعنى ذلك انه شارك ابن عمه ابا بكر في ذلك المنصب ، وكان ابن ابي حاتم هذا مشتهرا بالمجون وحرارة النادرة ، ومما يروى له في هذه الطريقة :

أنـا مشغـول بعـزفي	وبضربـي للحجـارة
انمـا يصلـح مثلـي	ان يـرى راكب جاره
أو يـرى في جوف حان	لابسا نصـف غـراره
قد نضا عني ثيـابي	حتـى الكأس المداره

ويقول ابن بسام : « وملحه في الادب غزيرة شاهدة له بقوة الطبع وخفة الروح » وأقدر ان مواهبه الادبية وصلت بينه وبين الشاعرين الكبيرين في عصره وهما ابن شهيد (٤٢٦ / ١٠٣٥) وابن الحناط (٤٣٧ / ١٠٨٤)، ولذا ارجح ان يكـون هـو الذكواني الذي يخاطبه ابن الحناط بقوله :

ان ابن ذكوان ذو راحـة	كريمـة صوبهـا دائم
لم يتألق برقهـا خلبا	ولا اتقى خلفها الشـائم
ومـن ابـوه ابـو حـاتم	قصـر عن جـوده حـاتم
يبني العـلا بالندى جاهدا	وغـيره للعـلا هـادم
محـكك حـول قلـب	محنك حازم عـبازم
تبصره دهـره قـاعدا	وهـو بأعبـائه قـائم
اذا انتضى سيفـه معلمـا	لـم تـدر ايهمـا الصارم

فهذا الذكواني المذكور في شعر ابن الحناط من ابناء ابي حاتم ، ولم يكن صديقا لابن الحناط وحسب ، بـل

كان صديقا لابن شهيد أيضا ، اذ نجد ابن الحناط يقول في تقديمه هذه القصيدة « فأنشدها اخاك الشهيدي وكلفه على العروض والقافية معارضتها ، ومن هنا يمكن ان نتوصل الى القول بأن ابن شهيد كان صديقا لابناء ابي حاتم ، ولاحدهم بوجه خاص ، وكان يعرف اباهم ويتحدث اليه ، وقد رثى اخاه ابا العباس قاضي القضاة ـ كما تقدم ـ ولا بد انه رثى ابا حاتم نفسه تقديرا له ولمكانته، واحساسا بواجبه تجاه العلاقة التي تربطه بأبناء ابي حاتم ولكن الشيء المستبعد ان نطلق اسم الصداقة على علاقته بقاضي القضاة أو بأبي حاتم نفسه ، وهذه القطعة التي نظمها عندما كان في مجلس ابن ذكوان دون تعيين) يصف باقلي قدمت اليهم واشترط ابن ذكوان الا ينفرد بالباقلي الا من يجيد وصفها ، فقال ابن شهيد :

ان لآليك أحـــدثت صلفا
فاتخـــذت من زمـــرد صدفا

ومنهـــا :

حاز ابن ذكوان في مكارمـــه
حـــدود كعب وما به وصفا

فهم الدر الرياضي منتخبـــا
منـــه لأفراس مـــدحه علفا
أكل ظريف وطعـــم ذي أدب
والفول يهواه كـــل من ظرفا
رخص فيـــه شيخ له قـــدر
فكان حسبي من المنى وكفى

أقول : هذه القطعة لا يمكن أن نستنتج منها أي بني ذكوان عني ، فقد يكون قالها في مجلس أبي العباس أو أبي حاتم كما قد يكون قالها في مجلس أبي علي حسن أو مجلس أبي العباس ابن أبي حاتم ، والدلالة الوحيدة فيها وصفه الممدوح « شيخ » واذا كان الامر كذلك لم يجز أن يستنتج منها أنه كان صديقا لأبي العباس قاضي القضاة للفارق الكبير في السن بين الرجلين ، ولا يصح أن يقال : « وتلك الصلة الوثيقة الغريبة بين ذلك الفتى الشاعر العربيد وهذا الشيخ الوقور العالم الفاضل • انما هي واحدة من غرائب أطوار ابن ذكوان في حياته الطويلة»، والاقرب الى الصواب أن يقال أن الصلة الوثيقة كانت قائمة بين ابن شهيد وأبناء أبي حاتم ابن ذكوان وعلى الاخص ابنه أحمد المكنى بأبي العباس ، ومما يقوي ذلك أن هذا الذكواني الاخير كان وزيرا ليحيى بن علي بن حمود وكان ابن شهيد على علاقة طيبة بيحيى كذلك •

وأرجح أيضا أن أبا العباس ابن أبي حاتم هذا هو هو الذي يخاطبه ابن زيدون بقوله حين أمر ابن جهور باراقة الخمور وكسر الدنان :

لست من بابة الملوك أبا العباس دعهم فشأنهم غير شأنك
ما جزاء الوزير منك اذا اختصك أن تستمر في ادمانك
أتراه لا يستريب لامساكك سعد العراق تحت لسانك
قـد نهانا عن المـدام انتهينا مع أنا نعـد في غلمانك

فقول الشاعر « مـع انا نعـد من غلمانك » يـدل ـ فيما أعتقد ـ على فارق السن بين الرجلين ، فابن أبي حاتم لم يكن من لدات ابن زيدون ، وانما كان الذكواني أقرب سنا الى جيل ابن شهيد وابن الحناط •

ويضيف ابن بسام قوله في ترجمة أبي العباس هذا « ثم لم يبعد ان اقصر بعد عن الهزل » فاعتدلت حاله ، وهبت له ريح بعد حين ، احظته عن العلية من نمطه » غير أن أبيات ابن زيدون تشير الى أنه لم يكن قد أقلع عن الشراب في زمن أبي الوليد ابن جهور (أو زمن أبيـــه أبي الحزم) •

ج ـ أبو حاتم ذكوان بن محمد بن ذكوان :

كان أحد المشيخة بقرطبة ، ولكن المعلومات عنـه ضئيلة حتى أن ابن الابار الذي انفرد بذكره يقول« لا أعلم له رواية » ، وقد جعله أبو الوليد بن جهور أحد من يسفر له في الاصلاح بين ملوك الاندلس •

النكبة الثانية وموقف ابن زيدون منها :

ماذا حـدث لبني ذكوان في أيام أبي الوليـد ابن جهور ؟ حين كان حسن بن ذكوان قاضيا بقرطبة ظهر من بني ذكوان ثائر اسمه أحمد أراد ـ فيما يبدو ـ أن يقوض الدولة الجهورية ، وكان هـذا هو السبب في تغـير أبي الوليد بن جهور على قاضيه المذكور واصداره الاوامر اليه بأن يلتزم بيته ولا يغادره لان القاضي هاود ابن عمه أحمد بن محمد بن ذكوان والرهيط الذي سعوا معه •

وهـذه الرواية الوحيـدة التي ذكرت اسم الثائر « أحمد بن محمد بن ذكوان » تنص أيضا على انه كان

ابن عم للقاضي أبي علي ، فهو ليس من أبناء أبي حاتم وقد كان من الممكن أن نفترض انه ابن لأبي بكر محمد ابن أحمد بن ذكوان (لورود اسم « محمد » في نسبه) ولكن يقف في وجه هذا الافتراض أمران :

أ ـ ان كان الثائر ابنا لأبي بكر محمد ، فانه ليس ابن عم القاضي حسن ـ لحا ـ بل يعد من أبناء عمومته وهذا أمر يكاد يكون مقبولا لو سندته دلائل أخرى ٠

ب ـ يقول ابن زيدون في رثاء أبي بكر بن ذكوان :

سيحوط من خلفته مستبصر في حفظ ما استحفظه لا يالو

كفل الوزير ابو الوليد يجبرهم ان الوزيــر لمثلها فعال

حتم عليـــه لا لعثرة حالهم
قـد تعثر الحالات ثم تقـال

ويفهم من هذه الابيات أن أبا بكر حين توفي خلف من يحتاجون الى كفالة الوزير ابن جهور ورعايته ، بل لعله « استحفظه » عليهم لحاجتهم الى رعاية واذا صح هذا التقدير فمن المستبعد أن ينشأ بين هؤلاء الذين خلفهم أبو بكر شخص قادر على أن يعلن ثورة على ابن جهور ، بعد أقل من خمس سنوات على وفاة والدهم ، هذا اذا لم يكن الامر مستبعدا من ناحية الوفاء لكفلهم ٠

ولهذا لا تزال النصوص المتيسرة قاصرة عن أن تحدد من هو القائم بالثورة ، وماذا كانت أهدافه ، ومن هم أتباعه وكيف تم اخماد ثورته ٠ ويفيد ما لدينا من معلومات أن القاضي أبا عـلي الحسن بن أبي الحاتم اتهم بأنه كان مخلصا في « مهاودة » ابن عمه ، فاما أن تكون هـذه التهمة باطلة ، وبطلانهـا ينفي التخطيط والمهاودة معا ، واما أن تكون صحيحـة ، فيكون التخبط عندئذ نوعا من عدم وضوح الرؤية أو من التردد ، وتكون المهاودة ضربا من التستر أو التأييد المادي اذى المعنوي ، أو تخفيفا للاحكـام عـلى الثائرين بعد اعتقالهم ، أو ما أشبـه ذلك ٠

ويؤخذ من طريقة ابن حيان في التعبـير أن الذين ثاروا بقيـادة ابن ذكوان كانوا « رهيطـا » ـ بصيغة التصغير ، فاذا لم يكن هذا التصغير من قبيل التحقير لشأن الثائرين وثورتهم ـ وابن حيان لغوي ضليع ـ فانه يفيد قلة في عددهم ، اذ الرهط من ثلاثة الى عشرة ، وقيل من سبعة الى عشرة ، وعـلى حسب القول الثـاني يكون « الرهيط » أقل من سبعة ٠

ولمـا كان القاضي أبو علي قـد نحي عن القضاء بسبب تلك الثورة في ربيـع الاول سنة ٤٤٠/سبتمبر (ايلول) ١٠٤٨ ، فان الثورة تكون قد حدثت قبيل ذلك التاريخ ، وليس لدينا من مصدر آخر يحدثنا عنها سوى قصيدة لابن زيدون ، ذهب ابن بسام الى انها قيلت في بني جهور عند نكبة ابن ذكوان ، ومطلع القصيدة :

هل النداء الذي أعلنت مستمع
أم في المتان الـذي قدمت منتقـع

ويتحدث الشاعر في هذه القصيدة عن تسويف الحظ، ويشكو كثرة المصائب التي تلحق أهل النباهة من أمثاله ، ثم يمدح بني جهور الذين لولاهم لما اشرقت هممه مدحا يعمهم ، ثم يخص من بينهم بالمـدح أبا الوليد الـذي استوفى مناقبهم ، وبعد أن يقضي أربه من المدح يتحول الى عتاب أبي الوليد ، فيذكره بموالاته واخلاصه ، ويرى من غير الانصاف وضع قدره بعد رفعه ، وحرمانه من نعمى ذاق حلاوتها ثم لم تلبث أن انقطعت معللا النفس بأن سوء البداية لا خير فيه اذا جاءت الخاتمة حسنة ثم ينتقل الى الحديث عن قوم افتضح مسعاهم ، فتبرأ منهم تبرؤا تاما ، وهذه هي الابيات :

ان الاولى كنت من قبل افتضاحهم
مثل الشجى في لهاهم ليس ينتزع

لم أحظ اذ هم عـدا باد نفاقهـم
الا كما كنت أحظى اذ هـم شيع

ما غاظهم غـير ما سيرت من مدح
في صائك المسك من أنفاسهم كنع

كـم غـرة لي تلقتهـا قلوبهم
كمـا تلقى شهاب الموقد الشمـع

اذا تأملت نصحي غب غشهـم
لم يخف من فلق الاصباح منصدع

تلك العرانين لم يصلح لها شمـم
فكان أهون ما نيلت بـه الجـدع

أودعت نعمـــاك منهم شر مغترس

لن يكرم الغرس حتى تكرم البقع

لقد جزتهم جوازي الدهر عن منن

عفت فلم يثنهم عن غمطهـا ورع

واذا أردنا أن نستخرج من هـــذه الابيات حقائق تاريخية وجدناها تقول لنا : ان هناك قوما كانوا يشايعون الامارة الجهورية ثم نافقوا ، وانه كانت لابن جهور عندهم نعمة غمطوها وكفروها فجوزوا بكفرهم ، اذ النعمـــة بذرت في أرض غير صالحة لانباتها ولهذا كان التنكيل بهم في موضعه ، كالعرانـين التي لايليق بهـا الشمم فيكون الجدع هو أهون ما يصيبها ، وهؤلاء القوم كانوا في حالتي الموالاة والنفاق يغصون بمقام ابن زيدون ، وكان هو كالشجى في حلوقهم ، وأشد ما كان يغيظهم منه مدائحه التي يضوع شذاها في أبي الوليد ابن جهـــور ، وكانت تقع على قلوبهم فتحرقها كما يحرق الشهاب الشمعـــة اذا لاقاها ٠

وليس في هذه الابيات تصريح بهوية أوائك الناس، ولولا أن بسام قرن القصيدة بنكبة بني ذكوان لقدرنا أن الشاعر يتحـدث عن أناس آخرين ، فنحن نعلـم أن ابن زيدون وأباه من قبله كانت تربطهما ببني ذكوان علاقات وثيقة طيبة ، تسمو الى مرتبة الصداقة مع بعضهم ٠ وقد حاول الاستاذ علي عبـد العظيم أن يلمـح الى أن الفساد ربما تسرب الى تلك العلاقة ، وخاصة بعد وفاة ابن أبي بكر ابن ذكوان ، مستدلا على ذلك بما يأتي :

أ) ان ابن زيدون داعب أبا العباس ابن أبي حاتم مداعبة قاسية عند تحريم الخمر وكسر أواني الشراب ، ولكن أي متأمل في تلك الابيات لا يجد فيها قسوة ، بل هي تنبيه ـ في صورة دعابة لابي العباس لكي لا يفتضح فيقع تحت العقوبة ٠ ثم ان تحريم الخمر لم يحدد تاريخه قطعا ، ولعله تم زمن أبي الحزم وقبـل وفـاة أبي بكر ابن ذكوان ٠

ب) ان أبا الوليد ابن جهور اتخذ ذكوان بن محمد ابن ذكوان سفيرا له ، ولعل هـذا قد أحفظ ابن زيدون الذي لم يكن يرتاح الى منافس ، ولكن اعتماد ابن جهور على ذكوان في شؤون السفارات غير محدد بزمن ، وليس ما يمنع أن يكون قد تم بعد هجرة ابن زيدون من قرطبة ٠

ج) ان القاضي أبا علي ابن ذكوان كان ذا حظ من شكاسة الخلق وخشونة الطبع ، ولعل شراسته مست ابن زيدون ، وهذا افتراض محض لا يؤيده دليل ، فأبو علي تولى القضاء بعـــد ابن المكوى ، عدو ابن زيدون ومودعه السجن ، وهذا قد يحمل ابن زيدون على الترحيب بأبي علي ، وان كانت المصادر لا تتحدث بشيء عن أية علاقة بين الرجلين ٠

واذا شئنا أن ندرس هذه الثورة من حيث علاقـة توقيتها بابن زيدون فعلينا أن نراجع وضعه العام أيام أبي الوليد بن جهور على ضوء ما قاله المؤرخ ابن حيان ، وهو يومئذ معاصر للاحداث ، وهذا نص ما قال : « ولما ولي (أبو الوليد) الامر بعد ولده نوه به وأسنى خطته ، وقدمه في الذين اصطنعهم لدولته ، واوسع راتبه وجلل كرامة لم تقنعه ، زعموا ، واتفق أن عن له مطلب بحضرة ادريس بن علي الحسني بمقـالة فأطال الثواء هنـالك ، واقترب من ادريس وخف على نفسه ، واحضره مجالس انسه ، فعتب عليه ابن جهور ، وصرفه عن ذلك التصرف قبل تقوله ، ثم عاد الى جميـل رأيه فيـــه ، وصرفه في السفارة بينه وبين رؤساء الاندلس فيما يجري بينهم من التراسل والمداخلة ، فاستقل بذلك ، لفضل ما أديته من اللسن والعارضة ، فاكتسب الجاه والرفعة ، ولم يبعد في ذلك من التهافت في الترقي لبعد الهمة ٠

ويستخلص من هذا النص أن ابن زيدون كان يرى نفسه أقوم بكثير على ما هو أعلى من كل منصب أسنده اليه صديقه ابن جهور فهو في أول الامر لم يقنع بما ناله في رأي من كان يعرفون مدى طموحه ـ ولهذا كان بصره معلقا

بكل منصب يحقق له مزيدا من الرفعة والجاه ، فلما أنس في ادريس ابلاغه الى ما تصبو اليه نفسه ، نسي مهمة السفير ، مما جعل ابن جهور يتغير عليه ثم يعود الى جميل رأيه فيه (كم كانت المدة بين الحالتين ؟) فيكلفه بالسفارة من جديد الا أن تلك السفارة نفسها كانت دون همته ولذلك كانت صورة « الترقي » تخايله ، وكان هو على استعداد لمنازلتها حيث أومأت له تلك حالة من حالات القلق اقترنت بتاريخ نشوب الثورة ، ولهذا يمكن أن نقدر أن ابن جهور لم يكن شديد الاطمئنان لصاحبه ، رغم قيامه بأعباء المهمة الموكولة اليه ، لان طموحه الطاغي ـ الذي أصبح معروفا مستعانا ـ لم يكن قد وجد ما يشبعه، فاذا اقترن اسم الثورة به ـ ولو باطلا ـ مال ابن جهور للانصات الى الساعين به •

وقد جاءت مبالغة ابن زيدون في التنصل من كل علاقة بالثائرين ـ ان كانوا هم بني ذكوان ـ مثارا للشبهة ، ويبدو أن التنصل لم يكن بالشعر وحده ، وانما كان بالرأي والمشورة ، تحريضا على الثائرين وغلوا في اظهار البراءة :

اذا تأملت نصحي غب غشهم
لم يخف من فلق الاصباح منصدع

غير أن هذا التبرؤ الحاسم من كل علاقة بين الشاعر والثائرين ـ في الماضي والحاضر ـ بل محاولة اثبات العداوة الراسخة بينه وبينهم ، قد يحمل على وجه آخر ، فقد يكون أكثر « الرهيط » القائمين بالثورة من غير بني ذكوان ، فاذا أنكر الشاعر كل علاقة له بهم قبل الثورة كان قوله ـ على وجهه الظاهري ـ صادقا ، وقد يكون أكثرهم من بني ذكوان من غير أصدقاء الشاعر ، اذ أن صداقته لبعضهم لا تعني صداقته للجميع ، بل لعل بيت بني ذكوان كان قد تضاءل شأنه ، وضعفت الرابطة التي كانت تشد أفراد الاسرة بعد موت المشهورين منها ، ولم يعد لصداقات الآباء أثر في توجيه منازع الاجيال اللاحقة، ولعل الثورة نفسها لم تكن الا تعبيرا « رومنطيقيا » عن الحنين الى العز الذاهب ، وحين يقول ابن حيان في أبي بكر ابن ذكوان : « وبمهلكه انهدم بيت بني ذكوان » فليس من الضروري أن يكون قوله هذا مبالغة في المدح ، بل لعله اشارة امرىء معاصر الى فقدان ذلك العز والى ضياع الرابطة العائلية وعدم وجود امرىء مطاع فيهم يفيئون الى رأيه فيجنبهم التهور والطيش •

وقد كان الشاعر بارعا حين ربط سبب عداوتهم له بما يسوقه من مدائح في ابن جهور ، كل مدحة منها تعد غرة ، فليس هذا اعتدادا بالبراعة الفنية ، وحسب ، بل هو مدخل سياسي مجمله أن الشاعر عودي لتحزبه لأبي الوليد واشاعة فضائله •

ولو عدنا الى قصائد ابن زيدون في أبي الوليد ابن جهور لوجدناها على النحو الآتي :

١ ـ قصيدة يعتذر فيها بسبب اطالته الاقامة بمالقة عند ادريس الحمودي •

٢ ـ قصيدة في التنصل من ثورة بني ذكوان •

٣ ـ قصيدة في تهنئة أبي الوليد عندما ولي الحكم•

٤ ـ قصيدة حين امر بكسر دنان الخمر ان كان هو الذي أمر بذلك •

٥ ـ ثلاث قصائد رمضانيات أو عيديات يهنئه فيها بعيد الفطر أو يثني على تعبده في الجامع طوال شهر رمضان ، فهي قصائد موسمية •

٦ ـ قصيدة مدح لا ترتبط بمناسبة •

٧ ـ قصيدتا رثاء واحدة في أبي الحزم وثانية في أم أبي الوليد •

فقصائد المدح التي قالها فيه لا تتجاوز ست قصائد في مدة لا تقل عن ست سنين (هذا اذا لم يفترض أن بعضها قيل في مدحه يوم كان وليا للعهد) منها ثلاث كان يشترك فيها مع سائر الشعراء حين يقفون للتهنئة برمضان أو بالعيد ، واذا كان عدم اكثاره من المدح لا يدل

– بالضرورة – على حالة القلق التي كان يعانيها (اذ المدح يرتبط في الغالب بمناسبة ما) فان بعض تلك القصائد يتحدث صراحة عن ذلك القلق ، وعن استقلاله لما كان يصله من كرامة وعن طمعه في مزيد ، ومنها هذه القصيدة التي يلوح له فيها بأن الناس ينصحونه بأن يهاجر عن قرطبة – مشرقا أو مغربا – ويقولون انه سيف معطل وان آماله قد خابت وشيب الرضى منها بالسخط :

يقولون شرق أو فغرب صريحة
الى حيث آمال النفوس نهاب
فأنت الحسام العضب عطل متنه
وعطل منه مضرب وذباب
وان الذي املت كدر صفوه
فأضحى الرضى بالسخط منه يشاب
وقد أخلفت مما ظننت مخايل
وقد صفرت مما رجوت وطاب

وتصويره هذا لبني قرطبة به يشبه أن يكون صوت الشاعر نفسه ، وضعه على لسان المحرضين ، أو يمكن أن يكون تحريضا من الخارج أفضى به أناس كانوا يحاولون أن يثيروا نقمته على الامير ، وكل ذلك قد يشير الى أن نفسه كانت مهيأة للثورة ، وانه اذا اتهم باطلا فذلك لان الذين اتهموه كانوا يعرفون ما بلغ اليه سخطه على ذلك الواقع ، أما اذا صحت التهمة فما ذلك الا لانه كان قد فقد الرجاء بعد أن خايل عينيه فترة ·

ومن الواضح أن ثورة بني ذكوان أسعفته على أن يحسم في الامر بحيث لا تظل قرطبة تشده دون مفارقتها ، بل أن الثورة جعلت الهجرة أمرا محتوما ، وما يكاد يحل عند صاحب اشبيلية ، وجنبه لم يطمئن فيها بعد ، حتى نسمعه يقول :

من مبلغ عني الاحبة اذ أبت
ذكراهم أن يطمئن مهاد
لا يأس رب دنو دار جامع
للشمل قد أدى اليه بعاد
ان اغترب فمواقع الكرم الذي
في الغرب شمت بروقه ارقاد
أو أنا عن صيد الملوك بجانبي
فهم العبيد مليكهم عباد

وهكذا شفى ابن زيدون نفسه – كما فعل المتنبي بعد فراق سيف الدولة – فهما قد فارقا ملوكا عبيدا ، وهو يعتقد أن البعد قد يحقق الدنو واجتماع الشمل ، وكأنه يهدد بمصير قرطبة الى أيدي بني عباد ، ولكن كل بعد عن قرطبة مؤلم مؤرق ، حين تحتمه تلك الثورة المشؤومة التي حملت في التاريخ اسم بني ذكوان ·

ليس في شعر ابن زيدون

الدكتور ناصر الدين الاسد

هذه خواطر وذكريات لقارىء متذوق ، وهي بطبيعتها تختلف عن آراء الباحث المحقق ، لكنها مع ذلك حرية أن يجهر بها صاحبها ، ولو على استحياء في مثل هذه الندوة العلمية الجادة ، وفاء لذكرى شاعر فنان كان من أوائل من علقهم صاحب هذه الخواطر في صباه الغض ، فصدق عليه قول القائل :

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وكان الصبية في زماننا ـ وهو زمان يبدو لنا الان موغلا في القدم السحيق لغربته عن هذا الزمان ـ ينشأون منذ أول عهدهم بالدراسة على الصلة الوثيقة بالاصيل الرائع من عيون تراثنا . ولم تكن حينئذ قد شاعت هذه النظريات الحديثة في التربية وعلم النفس التربوي التي أخذت تتعاظم دعوتها الى ضرورة التيسير والتسهيل على الصبية واتزام حصيلتهم اللغوية فيما يؤلف لهم من كتب، ومراعاة الالفاظ الشائعة في محيطهم ، وتعليمهم أدب العصور الحديثة لانه أقرب الى أفهامهم وأذواقهم . وهي نظريات كان من نتائجها أن أخذت الاواصر تتقطع شيئا فشيئا بين ناشئتنا وتراثنا الى أن أصبحوا على ما هم عليه الان من اغتراب عن هذا التراث . وكذلك كنا بنجوة من هذه الاستهانة باللغة العربية والسخرية منها ، تلميحا وتصريحا ، بالقول وبالفعل ، يصدران من معلمي المواد الاخرى في مراحل التعليم في موقفهم من اللغة العربية وقدرتها على التعبير العلمي والوفاء بمطالب العصر وحاجاته ، وهذه الاحكام العامة على تراثنا التي تمتلىء بها الكتب المدرسية والمقالات النقدية ، عن : الارتزاق بالشعر ، وغلبة المدح للخلفاء والامراء والولاة ، وشيوع العناية بالصياغة اللفظية . فأخذ كل ذلك يفعل فعله في ناشئتنا اليوم حتى صار عندهم يقينا مصدقا نفرهم من التراث العظيم .

ولكن الامر في أيام صبانا كان مختلفا أشد الاختلاف، فمنذ أن تفتحت عيناي على الشعر العربي ، وأخذت أشدو شيئا من روائعه ، استقبلني ابن زيدون في رحاب ديوانه ، وكانت طبعته الاولى حينئذ حديثة العهد ، فأدخلني رياضه الغناء ، وأنزلني ضيفا على موائده ، وأحل لي أطايبها . فقد كان فرح معلمنا باقتنائه نسخة من الديوان فرحا عظيما حقا ،دفعه الى أن يردد على مسامعنا قصيدة شوقي في تقريظ الديوان ، وقد أثبتها محققه رحمه الله وأثابه ، في صدر طبعته ، ومطلعها :

يا ابن زيدون مرحبا　　قد أطلت التغيبا

ثم حثنا على أن يشتري كل من استطاع منا نسخة لنفسه ، وبدأ يقرأ لنا قصائد الديوان من أول قصيدة فيه ، ويقف عند ابيات من كل قصيدة ويطيل الوقوف ، ويترنم بها ترنم المتذوق المعجب،وهو يهتز ويتمايل طربا. وصرنا ـ مع هذا الالحاح والاعادة والانشاد ـ نحس بما في نفس معلمنا حتى سرت الينا عدوى الاعجاب والطرب ، دون أن ندرك جوهر الفن في هذا الشعر بل دون أن نفهم جميع معاني الابيات .

بدأ قصيدته الاولى ذات الحكم الرائعة والتجربة الانسانية العميقة المستخرجة من واقع مأساته في السجن :

ما على ظني بأس　　يجرح الدهر ويأسو

ولكم أعاد وردد أبياتا منها ، وخاصة قوله :

ولئن أمسيت محبو　　سا فللغيث احتباس
فتأمل كيف يغشى　　مقلة المجد النعاس
ويفت المسك في التر　　ب فيوطأ ويداس

حتى حفظناها معه ، وأصبحنا نرددها مع أبيات أخرى في بيوتنا وخلواتنا ولقاءاتنا . ثم ثنى بقصيدته النونية التي شرقت وغربت منذ أيام ابن زيدون نفسه وأصبحت تذكر كلما ذكر ابن زيدون :

أضحى التنائي بديــلا من تدانينا
وناب عــن طيب لقيــانا تجــافينا

ولم يكن لها حينئذ في نفوسنا الاثر الذي كان للسينية، وكنا نجد رهقا وعنتا في حفظ بعض أبياتها وفهم معانيها وصورها . ثم ثلث بقصيدته الكافية :

ما للمدام تديرها عينــاك فيميل في سكر الصبا عطفاك

ولطالما وقت متمايلا وهو يكرر قوله :

أمـــا منى نفسي فأنت جميعها
يا ليتنــي أصبحت بعض منــاك
يدنو بوصلك حين شــط مزاره
وهــم أكــاد بــه أقبــل فــاك

ومع حرصه الشديد على تقريب معنى البيتين لنا وشرحهما بأساليب متعددة فقد كنا أعجز عن أن نفهم المعنى كاملا . ولحظنا حينئذ أنه لم يقف على شيء من بقيــة ابيات القصيدة في المدح ، فقد قرأها قراءة عابرة ولم يثبت في نفوسنا ولا في حفظنا شيء من هذا القسم . ولكنه حين وصل الى المقطوعة الرابعة أطال الوقوف والانشــاد والترنم وحملنا على أن ننشدها معه في غرفة الدراسة حتى حفظنا أبيات هذه المقطوعة الاربعة قبل انتهــاء الدرس وهي قوله :

ودع الصبر محب ودعــك ذائع من سره ما استودعك

ولامر ما وقف معلمنا عند هذه المقطوعة ، ولم نكمل معه قراءة قصائد الديوان . ومن عجب أنني في جميــع مراحل حياتي التالية لم أحفظ شيئا من شعر ابن زيدون سوى ما كنت حفظته حينئذ ، بل أكاد أقول انني لم أعد الى ديوان ابن زيدون الا لاعيد قراءة هذه القصائد الاربع نفسها التي نقشها في نفسي معلمنا منذ الصبا الاول ، لا أتجاوزها الى غيرها من قصــائد الديوان . وكلما ازددت قراءة لها ، وتقدمت بي السن ، واتسعت آفاق مداركي ، ازددت تعلقا واعجابا بسينيته الاولى وبمقطوعته الرابعة ، وبقيت على موقفي القديم من نونيته ومن القسم الاخير من كافيته . فهل مرد الامر الى صفات ذاتيــة فنيــة في هـــذه القصائد ، أو أنه من أثر ما رسخ في نفســي في غضارة الصبا ؟

- ٢ -

وظلت حالي مع ابن زيدون على تلك الحال الى أن هممت منذ نحو أربع سنوات بكتابة بحث ـ لم يقدر لي أن أكمله ـ حاولت فيه أن أجمع ما في شعرنا العربي على اختلاف عصوره ، من رثاء المدن وبكاء الممالك . وكان لابد أن أقرأ الشعر الاندلسي ، في دواوين شعرائه وفي مجاميع تاريخه الادبي والسياسي . وكان ديوان ابن زيدون من هذه الدواوين ، فحملت نفسي على قراءته قراءة فاحصة ناقدة في طبعتيه الاولى والثانية . واستوقفتني فيه عــدة أمور قيدتها حينئذ وتركتها بين أوراقي كما نفعل عادة في كثير من أحوالنا ، وصرفتني عنها الصوارف ، الى أن جاءت مناسبة هذا المهرجان الالفي ، فعدت الى ما كنت قيدت ، وعكفت على قراءة ما كتبه الباحثون باللغة العربية عن ابن زيدون : شعره وحياته وعصره . ورأيت أن أقتصر على الحديث عن جانب واحد ، لم يقف عنده الباحثون فيما أعلم ، واخترت له عنوانا (ليس في شعر ابن زيدون) اقتداء برسالة ابن خالويه (ليس في كلام العرب) . فقد دأب الباحثون على استجلاء صورة ما هو موجود في شعر الشاعر ، وبيان الموضوعات التي تناولها وابراز خصائصه الفنية . وهذا ضرب من الحديث مختلف اذ أنه يتعرض لما لم يرد في شعر ابن زيدون ، وكان الظن أن ابن زيدون عارض له لا محالة . ومن هنا أصابتني الدهشة أول الامر لان ما وردنا من شعر شاعرنا جاء خاليا منه .

فابن زيدون عاش ثــلاثا وستين سنــة من القــرن الخامس الهجري ، وهو قرن ازدهار الموشحات التي ابتدعها الاندلسيون ابتداعا منذ أواخر القرن الثالث الهجري ، ثم أخذت تنمو حتى استقام عودها واكتمل نظامها على يدي أبي بكر عبادة بن ماء السماء الذي توفي في نحــو ســنة ٤٢٢ للهجرة ، قبل وفاة ابن زيدون بأربعين عاما . وفي هذا القرن عاش عدد من الوشاحين الكبار الذين اشتهروا بالشعر وبالموشحات معا ، منهم : ابن اللبانة من أهل دانية وكان شاعر المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ومنقطعا اليه ، وابن رافع رأسه في طليطلة ، وأبو عيسى بن لبــون في بلنسـية ، ومحمــد بن عمــار في اشبيلية ، وأبــو الحسن الحصري الطارىء على الاندلس من القيروان وغيرهم . ومع ذلك لا نجد فيما وصلنا من شعر ابن زيدون موشحا واحدا له . هذه واحدة .

والثانية : ان هذا القرن كان قرن فتن واضطراب وصراع بين العرب أنفسهم وبين البربر وبين الصقالبة ، وفي الوقت نفسه بين هؤلاء جميعا وبين النصارى وكان بعض الامراء المسلمين من عرب وبربر يستعينون بهم على أبناء دينهم من الحكام المسلمين الآخرين . وقد شهد ابن زيدون

كثيرا من هذه الاحداث منذ ولادته ، ثم شارك في بعضها • فقبل مولده بعام واحد توفي الحاجب المنصور بن أبي عامر الذي أقام نفسه وصيا على الخليفة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر • وبدأ الامر يضطرب والخرق يتسع حتى زالت دولة الخلافة وبدأ عهد الفتنة منذ مطلع القرن وازداد تفاقما بقيام دول ملوك الطوائف سنة ٤٢٢ هـ وعمر شاعرنا في نحو الثامنة والعشرين ، فكان له القدح المعلى في قيام حكم ابي الحزم بن جهور في قرطبة وتوطيد أركانه • وفي خلال هذه السنوات الطوال مرت في حياة شاعرنا وحياة أمته وبلاده أحداث جسام من أهمها ما حدث لمدينته قرطبة وهو لا يزال صبيا يافعا من غزو المسيحيين لها حين استعان بهم سليمان بن الحكم الاموي الذي بويع بالخلافة ولقب بالمستعين بالله • وفتكوا بأهلها فتكا ذريعا وقتلوا منهم عشرات الآلاف واقتحموا المساجد وذبحوا من فيها ، وسبوا النساء وفعلوا من الافعال ما تقشعر لها الابدان حين يقرأ المرء وصفها في المصادر • وقامت في قرطبة خمس ثورات بين سنة ٤١٣ هـ و ٤٢٢ هـ وشاعرنا شاب راشد •

وتوالى سقوط المدن الاندلسية في أيدي النصارى ، فسقطت بلنسية وبطرنة وبربشتر قصبة بريطانية ، وكلها في شرق الاندلس فيما بين ٤٥٥ و ٤٥٧ للهجرة ووصف ابن حيان — المعاصر لابن زيدون — سقوطها وصفا يسفح الدمع حزنا ، فيما نقله عنه ابن بسام في الذخيرة وابن عذارى في البيان المغرب والمقرى في النفح • ومما قاله عن سقوط بربشتر : (ويئس من بها من الحياة فلاذوا بطلب الامان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال، فأعطاهم العدو الامان ، فلما خرجوا نكث بهم وغدر ، وقتل الجميع الا القائد ابن الطويل والقاضي ابن عيسى في نفر من الوجوه ، وحصل للعدو من الاموال والامتعة ما لا يحصى ، حتى أن خص بعض مقدمي العدو نحو ألف وخمسمائة جارية أبكارا ، ومن أوقار الامتعة والحلى والكسوة خمسمائة حمل ، وقدر من قتل وأسر بمائة ألف نفس ، وقيل : خمسون ألف نفس) • وقال : (وكان الفرنج لعنهم الله تعالى لما استولوا على أهل المدينة يفتضون البكر بحضرة أبيها ، والثيب بعين زوجها وأهلها ، وجرى من هذه الاحوال مالم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان •• وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة •

ولما عزم ملك الروم على القفول الى بلده تخير من بنات المسلمين الجواري الابكار والثيبات ذوات الجمال ، ومن صبيانهم الحسان ، ألوفا عدة حملهم معه ليهديهم الى من فوقه وترك من رابطة خيله ببربشتر ألفا وخمسمائة ومن الرجالة ألفين) •

وكانت أنباء هذه الاحداث الجسام تتناقل وتنتشر وتصل الى المدن الاخرى ، فلا تحرك ساكنا لنجدة غيرها لاشتغال كل حاكم بنفسه وتدبير أمور دنياه • وهكذا لم تتحرك قرطبة لنجدة بربشتر، قال ابن حيان : (ان بربشتر هذه تناسختها قرون المسلمين منذ ثلاثمائة وثلاث وستين سنة ، من عهد الفتوح الاسلامية بجزيرة الاندلس ، فرسخ فيها الايمان ، وتدورس القرآن ، الى أن طرق الناعي بها قرطبتنا صدر رمضان من العام (أي عام ٤٥٦ هـ) فصك الاسماع ، وأطار الافئدة ، وزلزل أرض الاندلس قاطبة وصار للناس شغلا شغلوا في التحدث به ، والتساؤل عنه ، والتصور لحلول مثله ، أياما لم يفارقوا فيها عادتهم من استبعاد الوجل ، والاغترار بالامل ، والاستناد الى امرأة الفرقة الهمل ، الذين هم منهم ما بين فشل ووكل ، يصدونهم عن سواء السبيل ويلبسون عليهم واضح الدليل) •

ويصف ابن حيان سقوط المدينة ، وأحوال المسلمين في هذا القرن وصفا مؤثرا ثم يقول : (قد اشفينا بشرح هذه الحادثة الفادحة مصائب جليلة مؤذنة بوشك القلعة طالما حذر اسلافنا لحاقها بما احتملوه عمن قبلهم من أثارة، ولا شك عند ذوي الالباب أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع وقد أمرنا بالتواصل والالفة ، فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادي عليه على شفا جرف يؤدي الى الهلكة لا محالة•• فدهرنا هذا قد غربل أهليه أشد غربلة •• فلبثوا في غير سبيل الرشد يعللون أنفسهم بالباطل ، وذلك من أول الدلائل على فرط جهلهم ، واغترارهم بزمانهم ، وبعدهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سد ثغورهم • حتى أطل عدوهم الساعي لاطفاء نورهم ، يجوس خلال ديارهم ، ويستقري بسائط بقاعهم ، ويقطع كل يوم طرفا ويبيد أمة • ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم ، لهاة عن بثهم ما أن سمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا ، مذكر لهم أو داع فضلا عن نافر اليهم أو ماش لهم ، حتى كأنهم ليسوا

منا أو كأن بثقهم ليس بمفض الينا • وقد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا عليهم بالغناء • عجائب فاتت التقدير ، وعرضت للتغيير ، ولله عاقبة الامور ، واله المصير) •

وانما أوردنا ما أوردنا من كلام ابن حيان الذي عاصر بعض هذه الاحداث ووصف زمانه وأهله ، لندل على هذه الكوارث المتلاحقة ، وفداحة الخطوب المتتابعة ، وجسامة الاحداث المتصلة التي هزت بعض المؤرخين وكتاب النثر كما هزت بعض الشعراء فذكروها ، ومع ذلك لا نجد لها صدى ، أدنى صدى في شعر ابن زيدون • لم تهزه أحداث مدينته قرطبة وما تعرضت له من غزو واضطراب وفتن ، ولم تفجعه النوازل التي ألمت بأمته ودينها ، ولم تحرك مشاعره هذه الخلافات المستحكمة بين الحكام المسلمين واستعانتهم بأعدائهم على أنفسهم وسقوط المدن الاندلسية في أيدي النصارى ، وقتل عشرات الالوف من الرجال واستباحة الحرمات وسبي النساء ، وضياع المجد وتقاص ظل الدين • ومع ذلك فان شعره حافل بالتفجع الباكي على نفسه وعلى محنته في سجنه وفي حبه ، وهو تفجع ممزوج بالاستعطاف والتذلل والعتاب •

أما الثالثة : فهو هذا الذي أطنب فيه مؤرخو الادب ونقاد الشعر من تميز الاندلس بسحر الطبيعة الغنية المتنوعة : بمياهها وأشجارها ورياضها وأزهارها وفواكهها وظلالها وأطيارها • وعدوا ذلك كله باعثا قويا من بواعث الشعر • وقد كان ذلك كذلك فقد اشتهر بعض شعرائهم بوصف الطبيعة ، والمقدم المشهور في هذا الفن هو ابن خفاجة ، ولكن غيره كثيرين لم يقصروا عن شأوه ، ونظموا ما عرف بالقطع الروضية ، كان القيان يغنين ببعضها ، وربما كان ابن دراج في طليعة هؤلاء الشعراء الذين أكثروا من وصف الطبيعة وأزهارها •

ولكن من الصحيح أيضا أن شعراء المشرق كان لهم سهم وافر في وصف الطبيعة،واذا كان مؤرخو الادب ونقاده يستشهدون على ذلك بالصنوبري ، فان لغيره قصائد سارت كل مسار في وصف الربيع كقصيدتي أبي تمام والبحتري، وفي وصف الجنان • وما قصيدة أبي الطيب في شعب بوان بخافية على أحد ، وليس هنا مجال هذا الحديث فهو يستعصي على الحصر منذ أول ما نعرف من شعر الجاهلية• وانما ما أوردنا لننتهي منه الى أننا لم نجد لابن زيدون — في هذه الطبيعة الاندلسية الساحرة — مقطوعة واحدة فضلا عن قصيدة كاملة ، تستقل بنفسها يصف فيها شيئا من مظاهر الطبيعة • لا نبلغ قصيدة واحدة من قصائد الشعراء الذين وصفوا الطبيعة ، ثم انه في جميع أبياته المتفرقة في قصائده المختلفة والتي يصف فيها هذه الطبيعة هذه الابيات المتفرقة لا يكاد يقع على الوصف حتى يتجاوزه مسرعا دون أن يوفيه حقه •

- ٣ -

اذا كانت هذه الملاحظات الثلاث جديرة بالتوقف عندها وبتسجيلها ،فهل لنا أن نخطو خطوة أخرى في طريق تأملها ومحاولة تفسير أسبابها وتعليلها ؟ ونحن ندرك صعوبة تفسير ما هو غير موجود وتعليل غيابه ، ولكن الصعوبة لا تحول بيننا وبين المحاولة ، وكذلك ندرك أن سببا واحدا قد يكون غير كاف لتفسير وجود أمر أو غيابه وربما احتاج هذا التفسير — ليستقيم وتتكامل اركانه — الى مجموعة من الاسباب تتضافر معا • ثم اننا ندرك آخر الامر أن التفسير والتعليل — مهما تكاثرت لهما الاسباب والعلل — انما هو مجرد افتراضات نظرية واجتهادات قد تصيب الحقيقة ، وقد تطوف حولها ثم تخطئها • ولكن ذلك كله لا يمنع — في سبيل المعرفة والوصول الى العلم — المحاولة وبذل الجهد •

واحتياط أخير لا بد من التنبيه اليه ، وهو ان ما لاحظناه انما هو مستخرج مما بين أيدينا من شعر ابن زيدون ، فهل يمثل هذا الشعر كل ما قاله الشاعر أو أن لابن زيدون شعرا غيره لا يزال مكنونا في بطون مخطوطات لم نعثر عليها بعد ، فيه مالم نجد في الشعر الذي وصل الينا ، وبذلك تصبح ملاحظاتنا في غير محلها •

مهما يكن من أمر فان حديثنا مقصور الان على هذا الديوان المطبوع الذي وصلنا من شعر ابن زيدون ، وستظل ملاحظاتنا واردة الى أن يقوم الدليل على غيرها ، ونرجو أن تكون مناقشتها مفيدة في الكشف عن بعض جوانب تاريخنا الادبي •

كانت الملاحظة الاولى أننا لم نجد فيما وصلنا من شعر ابن زيدون موشحا واحدا له ، في حين ان عصره شهد عددا من الوشاحين الكبار الذين اشتهروا بالشعر وبالموشحات معا •

أيكون السبب في ذلك راجعا الى طبيعة الموشح نفسه الذي وصفه ابن سناء الملك (المتوفي سنة ٦٠٨ هـ) بقوله انه : (هزل كله جد ، وجد كأنه هزل ، ونظم تشهد العين أنه نثر ، ونثر يشهد الذوق انه نظم) ثم أخذ يشرح معنى

هذا الكلام الموجز شرحا طويلا مفصلا نقتطف منه وصفه للخرجة بقوله : (والخرجة عبارة عن القفل الاخير من الموشح ، والشرط فيها أن تكون حجاجية من قبل السخف ، قزمانية من قبل اللحن ، حارة محرقة ، حادة منضجة ، من ألفاظ العامة ولغات الخاصة ٠٠ وأكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكرى والسكران ٠٠ وقد تكون الخرجة عجمية اللفظ بشرط أن يكون لفظها أيضا في العجمى سفسافا نفطيا (أي محرقا) ورماديا زطيا ، والخرجة هي ابراز الموشح وملحه وسكره ومسكه وعنبره ٠٠ وفي المتأخرين من يعجز عن الخرجة فيستعير خرجة غيره ، وهو أصاب رأيا ممن لا يوفق في خرجتــه بأن يعربهـا ويتعاقل ولا يلحن فيتخافف بل يتثاقل) ٠

ثم ينتقل الى الحديث عن أقسام الموشـح وأنواعـه فيقول : (والموشحات تنقسم قسمين ، الاول : ما جاء على أوزان أشعار العرب ، والثاني : ما لا وزن له فيها ولا المام له بها ٠ والذي على أوزان الاشـعار ينقسم قســمين : أحدهما : ما لا يتخلل اقفاله وأبياته كلمة تخرج به تلك الفقرة التي جاءت فيها تلك الكلمة عن الوزن الشعري ، وما كان من الموشحات على هذا النسج فهو المرذول والمخذول وهو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات ولا يفعله الا الضعفاء من الشعراء ٠٠ والقسم الثاني من الموشحات هو ما لا مدخل لشيء منه في شيء من أوزان العرب ، وهذا القسم منها هو الكثير ، والجم الغفير ، والعدد الذي لا ينحصر ، والشارد الذي لا ينضبط ٠٠ وما لها عروض الا التلحين ٠٠ فبهذا العروض يعرف الموزون من المكسور ، والسالم من المزحوف ، وأكثرها مبنى على تأليف الارغن ، والغناء بها على غير الارغن مستعار وعلى سواه مجاز) ثم فصل القول في هذا القسم فقال عنه انه (مضطرب الوزن مهلهل النسج ، مفكك النظم ، لا يحسن الذوق صحته من سقمه ولا دخوله من خروجه) وبعد أن يضرب عليه مثلا يقول : (فيها أنت ترى نبو الذوق ، عن وزن هذا الكلام وما له عند الطبع الضعيف نظام ، ولا يعقله الا العالمون من أهل الفن والملائكة المقربون من أهل هذه الصناعة ، ومثل هذا لا يقدم عليه الا مثل الاعمى (التطيلي) والا فالبصير يحذره ولا ينظره ، وما كان من هذا النمط فما يعلم صالحه من فاسده وسالمه من مكسوره ، الا بميزان التلحين ، فان منه ما يشهد الذوق بزحافه بل بكسره فيجبر التلحين كسره ويشفي ســقمه ويرده صحيحا ما به قلبة ، وساكنا لا تضطرب منه كلمة) ٠

ومن قبل ابن سناء الملك وصف ابن بسام (المتوفي سنة ٥٤٢ هـ) هذه الموشحات وأوزانها وترفع عن ذكر شيء منها في كتابه ، قال : (وهي أوزان كثر استعمال أهـل الاندلس لها في الغزل والنسيب ، تشق على سماعها مصونات الجيوب ، بل القلوب ٠ وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها ـ فيما بلغني ـ محمد ابن حمود (أو محمود) القبري الضرير ، وكان يصنعها على أشطار الاشعار ، غـير أن أكثرها علـى الاعاريض المهملة غـير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ٠٠ وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان اذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب) ٠ وحين يتحدث عن أبي بكر عبادة بن ماء السماء يقول : (وكان أبو بكر في ذلك العصر (توفي نحو سنة ٤٢٢ هـ) شيخ الصناعة ، وامام الجماعة ، سلك الى الشعر مسلكا سهلا ، فقالت له غرائبه مرحبا وأهلا ٠ وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الاندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها ، غير مرقومة البرود ، ولا منظومة العقود ، فأقام عبادة هذا متـبـأدها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكأنها لم تسمع بالاندلس الا منه ، ولا أخذت الا عنه ، واشتهر بها اشتهارا غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته ٠٠ وقد اثبتت من شعر عبادة في هذا الفصل ومن سائر كلامه ما يدل على تقدمه واقدامه) ٠٠ أجل ، ولكنه لم يثبت شيئا من موشحاته التي اشتهر بها ، فدل اسقاطه أياها على أنها ليست مما يدل على تقدمه واقدامه ـ في رأي ابن بسام أي بعد نحو مائة عام وعشرين عاما من وفاة عبادة ـ ودل بذلك أيضا على تنزيهه كتابه عن أن يتضمن شيئا منها ٠

فهـــل كان السبب في احجام ابن زيدون عن نظم الموشحات مرده الى نظرة القوم حينئذ اليها : في جوها العام ، وفي ألفاظها ، وفي أعاريضها ، حتى تجنب مؤرخو الادب والمؤلفون ايراد نماذج منها في كتبهم الى القرن السادس الهجري ، وحتى عد ابن بسام اشتهار رائد هذا الفن بها ذاهبا بكثير من حسناته ؟

وابن زيدون سليل أسرة عريقة في المجد ، هي مخزوم ، وابن فقيه عالم كانت له منزلته في الحكم وكان مشهورا بثرائه العريض ، ثم انه تقلب هو نفسه في مناصب الحكم حتى ولى السفارة ثم الوزارة ٠ وكل ذلك حري بأن يجنب المرء كثيرا مما يخوض فيه غيره ، ويفرض عليــه قيودا يتحلل منها من لم تكن له هذه المنزلة ، ويجعله يتحاشى عن

ضرب من الشعر يسقط منزلته ويذهب بحسناته .

وهذا تعليل قد تطمئن اليه النفس ويرتضيه العقل. ولكن أمانة البحث تقتضي أن نشير الى أن شرف النسب

وعراقة المحتد وحدهما لم يحولا بين غير ابن زيدون ونظم الموشح في العصر نفسه . فأبو بكر عبادة بن عبد الله، الذي أقام من الموشحات (منآدها وقوم ميلها وسنادها فكأنها

لم تسمع بالاندلس الا منه ولا أخذت الا عنه) كان انصاريا (من ذرية سعد بن عبادة، وقيل له ابن ماء السماء

لجدهم الاول) . وليس من كان له مثل هذا النسب بأقل شرفا وعراقة من ابن زيدون في نسبه المخزومي .

وكذلك فان رفعة المنصب وعلو المكانة وتولي الوزارة لم تحل وحدها بين غير ابن زيدون ونظم الموشح . فما

أكثر الوشاحين في عصر شاعرنا نفسه الذين تولوا أرفع المناصب . فأبو عيسى ابن لبون، وأبو بكر محمد بن

عمار، كانا من ذوي الوزارتين شأنهما في ذلك شأن ابن زيدون، وأبو عبد الله محمد ابن رافع رأسه تولى قضاء طلبيرة، وكانت للقضاء مكانته وهيبته .

وكذلك فان الموشح لم يكن دائما خارجا عن العروض وبحور الشعر، ولا كان دائما يستعمل ألفاظ العامة ولا الجمل العجمية في بعض أجزائه، ولم يكن دائما يتدنى

الى السخف والتهتك وينبع من مجالس الخمر والغناء . بل كان منه هذا الضرب الذي يسمى الموشح الشعري، وكان شأن بعضه شأن أروع الشعر العربي: سلامة عروض، وصفاء لغة، ونصاعة أسلوب، ورفعة مقصد وكرم عاطفة وشعور، ومن أقرب النماذج الى حفظنا موشح ابن زهر الحفيد:

أيها الساقي اليك المشتكى   قد دعوناك وان لم تسمع

فاذا كان كل سبب من هذه الاسباب لا يقوم وحده

في تعليل هذه الظاهرة فهل تكون هذه الاسباب مجتمعة معا هي التي دعت ابن زيدون الى الانصراف عن نظم الموشح؟ أو أن مرد الامر – أولا وأخيرا – الى تكوينه الشخصي والى

صلته النفسية الوثيقة بالتراث الادبي المشرقي الذي كان المثل والانموذج للمحافظين على تقاليد الشعر العربي ورسومه، السائرين على خطى السلف في نظمهم وبناء قصيدتهم، النافرين من كل بدعة مستحدثة؟

وأيا كان الامر، فان من العسير القطع على وجه التثبت، وبحسبنا أن نذكر هذه الافتراضات والاحتمالات لعلها تدفع بعض الباحثين الى الاستقصاء والتمحيص، والوصول الى ترجيح ان عز اليقين .

أما الملاحظة الثانية التي لاحظناها فهي أن ما وصلنا من شعر ابن زيدون كان محصورا في ذاته، يدور حول نفسه، لا يتجاوز نطاقه الشخصي الى مجتمعه والى الحياة

من حوله، ولم يظهر فيه أثر للنكبات التي حاقت بأمته ووطنه ودينه، ولا للفتن التي كان يستشرى أوارها منذ ولادته واستمرت طوال حياته حتى وفاته، وشهدها وشارك في بعضها .

فهل كان ذلك لانه رجل سياسة: خاض غمارها وعرف أسرارها واكتوى بنارها، فانتهى به دهاؤه السياسي الى أن يتربص بالامور ويتحين الفرص ويتجنب أن يصدر منه

ما يروى عنه وينقل، فيشيع ويؤخذ بجريرته ويصيبه بالاذى في نفسه أو ماله أو منصبه؟ هل كانت الاحداث

في زمنه غير معروفة المصادر والموارد، ولا مأمونة العواقب، وكان حتى من هو في منزلة ابن زيدون لا يعرف على من تدور الدوائر، فآثر السلامة والعافية، فطنة منه وكياسة،

حتى يستطيع أن يجني ثمار النتائج مهما تكن ويكتال بكل كيل؟ وهل هذا تفسير تقلبه السياسي منذ أن شارك في قيام دولة آل جهور في قرطبة الى أن شارك في اسقاطهم

وزوال ملكهم، وهل في هذا توضيح صلته بأبي الحزم بن جهور ومعرفة أبي الحزم بهذا الخلق في ابن زيدون حتى زج به في السجن، ثم صلته بابنه أبي الوليد، وابطائه

عليه في بعض سفاراته لدى الملوك والحكام الآخرين أملا في نفع منهم لم يكن ناله منه، ثم تخليه عن أبي الوليد وذهابه الى المعتضد واستمرار صلته به مع ما عرف عن

المعتضد من تقلب وحدة طبع وفتك بالمتصلين به والمقربين اليه حتى انه لم يتورع عن قتل احد ابنائه؟ ثم صلته

الوثيقة بالمعتمد واشتراكه معه في احتلال قرطبة، ثم ضيق المعتمد به وارساله اياه الى اشبيلية وهو شيخ كبير استبد به

المرض، ليلقى حتفه؟ وفي كل هذا ليس لابن زيدون شعر يذكر، فيه عاطفة وفاء أو موقف صدق واخلاص .

واذا كان هذا تفسير حاله من الفتن الداخلية بين هؤلاء الحكام والملوك، فلماذا صمت أيضا في شعره عما كان يلحقه الاسبان النصارى بأمته ودينه وبلاده؟ ألهذه

الاسباب نفسها؟ فكأنه كان يخشى أن تكون لهم الدولة فآثر النجاة ليفوز لديهم بالغنيمة؟ أم أن الامر كله لم يكن يعنيه ما دام بعيدا عن أن يصيب نفسه ومنافعه الشخصية؟

والحق أن ابن زيدون لم يكن وحده في ذلك، فقد صمت غيره في زمانه عن كل ما صمت عنه أو عن أكثره . ولولا ما نعرفه من التاريخ عن أحداث هذا العصر ما

وجدنا في شعر شعرائه الا أقل القليل • ولم تكن الاندلس وحدها بدعا من الامر فان القارئ للشعر في عهود الحروب الصليبية في المشرق يصاب بالذهول، لضعف تفاعل الشعراء مع احداث امتهم ومع الكوارث التي نزلت بهم، وكأنه لم يكن لهم الا هـذا المدح ــ علـى سخف أكثره وغثاثته ــ يقولونه في بعض الامراء والقـادة حين يخوضون بعض المعارك ويحرزون فيها النصر • وما أبعد هذا عما نحن بسبيله •

وأيا كان التعليل ، فان هـذه الظاهرة في المشرق والاندلس معا لا تزال بحاجة الى دراسة مستفيضة تتناولها بالشرح والتحليل •

أما الملاحظة الثالثة التي لاحظناها فهي اننا لم نجد لابن زيدون في الطبيعة الاندلسية الساحرة مقطوعة واحدة، فضلا عن قصيدة كاملة ، تستقل بنفسها يصف فيها شيئا من مظاهر الطبيعة ، كما كان لكثيرين غيره من شعراء الاندلس •

ومع ذلك فان من الحق أن نقول أن شعر ابن زيدون كله يكاد يكون أفوافا من الطبيعة موشاة ، نسجتها يد صناع أبدعت تصوير حواشيها وابراز نقوشها ، وخاصة غزله الـذي امتزج فيـه احساسه بالطبيعة واحساسه بالمـرأة وجمالها امتزاجا جعل كلا من الاحساسين جزءا من الآخر وامتدادا له في وحدة فنية استوقفت كثيرا من الدارسين، من العرب والفرنجة ، حتى انهم ذهبوا الى أن ابن زيدون كان ذا أثر واضح في الشعراء بعده وان أثره تجاوز الشعراء العـرب الى شعراء الطبيعـة الغربيين الذين يربطون بين الطبيعة والحب ، وأطالوا الوقوف عند قصيدته في ولادة :

انـي ذكرتـك بالزهـراء مشـتاقا
والافق طلق ووجه الروض قد راقا

وعدوها مثالا لتوضيح الشـعور العميق بالطبيعـة الذي تميز به الشعر الاندلسي •

ومن أوضح الامثلة على امتزاج هذين الاحساسين معا قصيدتاه المخمستان :

سقى الغيث اطلال الاحبة بالحمى

و :

تنشق من عرف الصبا ما تنشقا

وكذلك بعض قصائده في المديح التي كان يبدأها بالنسيب ، وخاصة قصيدته في مدح المظفر بن الافطس أمير بطليوس :

هي الشمس مغربها في الكلل
ومطلعها من جيـوب الحـلل

بل اننا نراه في قصائده التي تخلو من وصف سافر أو مباشر للطبيعة ومظاهرها، يعمد الى بث احساسه العميق بالطبيعة في ثنايا مناجاته للحبيبة ، حتى أن القارئ لا يحس أنه يتنقل في روضة غناء من فنن الى فنن ، ينشق عبير الازهار ويسمع تغريد الاطيار ، ويرى مظاهر الطبيعة وألوانها متآلفة في لوحة فنية بديعة التصوير ، وأقرب مثال لذلك قصيدته المشهورة :

أضحى التنائي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيـانا تجافينـا

فهل نستطيع أن نقول في تعليل افتقادنا لقصائد ومقطعات كاملة في وصف الطبيعة في شعر ابن زيدون ، ان شاعرنا لم يكن يحس بالطبيعـة ومظاهرهـا معزولـة وحدها ، احساسا منفصلا مستقلا قائما بذاته حتى يفردها في قصائد ومقطوعات ، وانما كان احساسه بالطبيعة جزءا من احساسه العام بالجمال ممزوجا باحساسه بالمرأة وشعوره بها ، ومن ذوب هذه الاحاسيس صـاغ شعره في الغزل والتشوق والتذكر والمناجاة والشكوى والوصل والهجر • فهو لا ينظر الى الطبيعة بعين عقله ولا بعين خياله ليتصيد الاوصاف والتشبيهات للروضة أو للغدير أو للطـل أو للبرد ، وهو ليس شـاعرا رسميا محترفا حتـى تفرض عليه مثل هذه الموضوعات ليقول فيها شعرا ، ولم يكن يحس أن أحدا يتطلب منه ذلك أو يتوقعه منه في مناسبات معينة • وانما هو شاعر فنان يستجيب لدواعي نفسه ولاحاسيسه الداخلية ومشاعره الذاتية • ومن هنا جـاء شعوره بالطبيعة مبثوثا في ثنايا شعره الذي يعبر فيه عن ذوب عاطفته •

وبعـد ،

فقد بدأت هذا الحديث بأنه خواطر وذكريات لقارئ متذوق تختلف بطبيعتها عن آراء الباحث المحقق • ولم يكن في نيتي أن أقحم نفسي في متاهات التعليل والتفسير والتحليل ، ولكن الحديث ذو شجون ، وقد جرني الى ما كنت أحب أن أتجنبه مخافة التقصير ، فان لم أكـن قـد بلغت فيه مقنعا فحسبي أني أثرت من القضايا ما أراه جديرا بأن يتولاه من عنده فضل بيان فيه •

تلميحات بنيه شواهد ابن زيدون

الاستاذ : عبدالعزيز احمد الرفاعي

بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بالرسالة الجدية

كما استفاضت شهرة أبي الوليد أحمد بن عبد الله ابن زيدون المخزومي (قرطبة ٣٩٣ هـ / ١٠٠٣ م — ٤٦٣ هـ / ١٠٧١) شاعرا ترددت أصداؤه الرقيقة في العالم العربي مشرقيه ومغربيه على حد سواء ، فقد كان الى جانب شعره الرقيق ، فارسا من فرسان النثر ·· لقيت بعض رسائله شهرة واسعة ، وعني بها الشراح والنقاد والمعلقون والمحللون ·· عناية فائقة ·· بل لقد ذهب فريق من الباحثين الى تغليب جانب نثره على شعره ·· وان كان قد ذهب فريق آخر منهم الى عكس ذلك ··

ومهما يكن الأمر ، فقد كان ابن زيدون متفوقا بنثره ، كما كان متفوقا بشعره ·· وكلاهما مظهر من مظاهر عبقريته ونبوغه ··

ومع ذلك فان هناك حقيقة بارزة ، لا مجال لانكارها ·· وهي أن نثر ابن زيدون ، وان كان متفوقا حقا ·· ولكنه ·· أو على الأقل أكثر ما وصل الينا منه ، لم يكن يحمل من صدق العاطفة وحرارتها ذلك الدفء الذي تجلى في بعض قصائده ·· مثل نونيته أو سينيته ··

ولكن الباحثين الذين عنوا بشعر ابن زيدون ·· فحققوه أو درسوه أو نقدوه ، أو أشادوا به ·· كانوا هم الكثرة الكاثرة ··

بينما ، في الجانب المقابل ، لا نجد من الباحثين المعاصرين ، من عني بالقاء أضواء كثيرة على نثره ·· اللهم الا قلة قليلة ·· وهم انما فعلوا ذلك — غالبا — في سياق الحديث عن ابن زيدون شاعرا ··

على أن القدامى كانوا أكثر عناية بنثر ابن زيدون ·· ولذلك احتفوا برسائله حفاوة خاصة ·· الى جانب حفاوتهم بشعره ··

وقد ترك لنا ابن زيدون رسائل أدبية ·· وصل الينا بعضها ·· أقول بعضها فقط ·· لأنني أتصور ابن زيدون انما كتب الكثير من الرسائل بحكم منصبه في الصدارة ، في عهد بني جهور ، ثم لدى المعتضد ابن عباد وابنه المعتمد ·· غير الرسائل الخاصة التي كتبها في شؤونه أو شجونه ··

من هذه الرسائل اشتهرت رسالتان ·· الرسالة الهزلية ·· التي كتبها على لسان حبيبته ولادة بنت المستكفي ·· وموجهة الى منافسه على قلبها ، ابن عبدوس ·· وقد سميت ، الهزلية ، لغلبة التهكم عليها ··

والرسالة الأخرى ·· هي الرسالة الجدية ·· وسميت كذلك لأنها تغاير تلك في محورها ، وفي معانيها ·· وقد كتبها ، وهو في سجنه بقرطبة يستعطف بها حاكمها الوزير ابا الحزم بن جهور ليطلق سراحه، ويرد اليه اعتباره بيد أن الرسالتين ، وان اختلفتا موضوعا ، فقد اتفقتا منهجا ·· واقتربتا اسلوبا ·· فان كلا منهما تمتلىء بالمعلومات والشواهد النثرية والشعرية والأمثال والحكم والاشارات ·· الامر الذي جعلهما من أشهر المتون الأدبية التي عني بها الشراح ·· فوضعوا في شرحها المؤلفات ·· أما أسلوبهما فقد غلب عليه أسلوب المزاوجة بين الترسل والسجع ·· أو المراوحة بينهما ، على اختلاف يسير في ذلك ، بحيث تتميز احداهما عن الأخرى ببعض التميز ·

على أنني لا أستبعد أن تكون أولاهما سببا في

الأخرى ... فاني أميل الى ادخال الرسالة الهزلية ، سببا من أسباب حنق ابن جهور عليه .. ذلك لان ابن عبدوس ، الذي سخر به ابن زيدون في رسالته الهزلية ، فأمعن في السخرية غاية الامعان ، انما هو رجل بارز من رجال ابن جهور .. كما أن الرسالة الهزلية تناولت في غير ما رفق سمعة ولادة بنت المستكفي .. وهي بنت خليفة من خلفاء بني أمية في الأندلس ، ولا ينبغي أن نغفل ، أن ابن جهور ، وان كان قد قوض حكم الامويين في قرطبة أو ساهم في تقويضه فانه كان يحتفظ بروح القاضي المتحرج، عدا عن أنه كان يتظاهر بأنه انما يحافظ على حكم بني أمية ريثما يسلمه الى من يصلح لـه .. ولكي ينسجم تصرفه مع هذه الدعوى عليه أن يرعى حرمة ولادة .. بوصفها أميرة من هذه السلالة ..

مهمـا يكن الامر ، فليس هنا مجـال التفصيل أو التحليل في هذا الشأن وانبثقت كل من الرسالتين في أعقاب أزمة .. الرسالة الهزلية ، في أعقاب شعور ابن زيدون أن ابن عبدوس منافس خطير على قلب ولادة .. وانـه قد يفلح في انتزاعها منه .. وقد صح فيما بعد ما توقعه فقد توثقت العلاقة بين ابن عبدوس وولادة .. وانبثقت الرسالة الثانية في أعقاب سجنه .. ومن داخـل السجن كتبها وهو يشعر بالكثير من المرارة .. والضيق ، وشيء أقرب ما يكون الى اليأس والقنوط ..

ومع أن المتوقع أن ترتفع حرارة الوجدان في كلتا الرسالتين .. الا أن الحس الابداعي استولى على قلم ابن زيدون ، فطغى على عاطفته .. فأصبح كل منهما متنا أدبيا .. يتناوله المعجبون لما احتشد به من شواهد ، ولطريقة تناوله ، لا لمحتواه وموضوعه .. أو أن هـذا يأخذ على الاقل الدرجة التالية ...

اذن فمكان الرسالة الجدية هو سجن قرطبة ..

أما زمنها فهو حوالي منتصف سنة ٤٣٣ هـ ...

وسمتها الغالبة ، هي الاستكثار من الشواهد سواء من القرآن الكريم ، أو من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو من أقوال الصحابة ، ومشهوري الرجال ، أو من أمثال العرب ، أو حلا لشواهد شعرية .. أو استدلالا بشواهد أخرى .. حتى لقد أخذ النقاد على ابن زيدون، أن شخصيته الذاتية هنا تكاد تختفي وراء هـذا الحشد الحاشد من الشواهد .. وهذا حق ، ولكن براعة الرجل ، انمـا تتجلى في القـدرة على حشد كل هذه الاقـوال ، وتنسيقها ، وابرازها في مواردها ، وفي حسن اختيارها ، وفي ملاحقتهـا بحيث تستوفي أغراضـه ، أو استطراده فهي مظهر من سعة ثقافته ، وغزير حفظـه .. وحسن تذوقه وذوقه ...

ومن هذا الجانب ، بهرت عددا من الأدباء والشعراء والباحثين فمضوا يشرحون غامضها ، ويلاحقون شواردها، ويضيفون الى استطراداته استطرادات جديدة ، فكـان للادب ثروة غالية ، أهداها اليه ابن زيدون ..

وأشهر ما وصل الينا من شروح الرسالة الجدية ، هو الشرح المسمى (تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون) لخليل بـن ايبك الألبكي الصفدي ، صلاح الـدين أبي الصفاء (٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م ـ ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) وقد طبع لآخر مرة سنة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م بتحقيق الأستاذ (محمد أبو الفضل ابراهيم) .

ومما وقفت عليه من شروح المعاصرين (الـدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون) لأبي بكر محمد عليم فرغ منه سنة ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨ م وهو شرح جيد يمتاز عن « تمام المتون » بايراد تراجم لبعض الشعراء والادباء، الذين يرد ذكرهم في شواهد ابن زيدون .

وهناك شروح أخرى غير هذين الشرحين ..

ويعني كل من هذين الشرحين ، بايراد النصوص الشعرية ، أو بعضها من تلك القصائد أو المقطعات الشعرية التي دلت عليها شواهد ابن زيدون الأمر الذي حدا بي الى تأمل هذه النصوص ، وما قد تومىء اليه من اشارات لا أستبعد أن يكون الكاتب قـد قصدها .. ومن هنـا جاءت فكرة هذه المحاضرة .. وان كانت مثل هذه الفكرة،

لم تكن محل عناية واضعي تلك الشروح ·· الى الحد الذي وقفت عليه ··

لقد عنى شراح الرسالة الجدية ، بالجانب اللغوي والنحوي ، وايراد التوضيحات ونظائرها ·· ولم يخل بعضها من شيء يسير من النقد أو التحليل كما فعل الصفدي أو عليم ·· ولكن هذا النقد ، ورد بطريقة عفوية ·· لا يشكل معنى التحليل والدراسة ·· أي انه لم يكن هدفا أساسيا من أهداف الشرح ·

واذا كان شرح الصفدي يمتاز بالتنظير « أي ايراد ما يماثل النص ، من أقوال ·· والاستطراد في ذلك ·· فان شرح عليم أكثر تركيزا ، وأكثر دقة في استيفاء النصوص ، ويمتاز – كما قلت – بالترجمة لاصحاب النص ·· ولكن لا ينبغي أن ننسى له انه استفاد من شرح الصفدي ، ولو بطريق غير مباشر ·· والفضل للسابق المتقدم بلا شك ·· وان كان شرح « عليم » يعتبر متمما ومكملا لشرح الصفدي ، وقد سد بالفعل الكثير من ثغراته ··

بيد ان هذه الرسالة لا تزال في حاجة الى دراسة عصرية واعية ·· ومثل هذا القول يصح في رسائله الاخرى ·

على أنه جدير بالذكر ، ان الرسالة الجدية لم تصل الينا كاملة ، كما يحدثنا بذلك الاستاذ علي عبد العظيم ، في كتابه (ديوان ابن زيدون : رسائله) ، فالمصدر الوحيد لها هو « الذخيرة » لابن بسام ·· وهذا لم يوردها كاملة · · وهكذا ظل جزء منها مجهولا لدينا ··

وقد لف الضياع الكثير من آثار ابن زيدون من ذلك كتابه في تاريخ بني امية « التبعية » ·

وتعتبر رسالته (البكرية) وهي التي وجهها في أعقاب فراره واختفائه عن الانظار الى صديقه ابي بكر مسلم بن أفلح النحوي يتشفع به ، ويستعين بوجاهته ، فتعتبر متممة لرسالته الجدية ، موضحة لبعض أسباب سجنه وظروف السجن ·· ومن أجل ذلك لا بد لمن يتوفر على دراسة الرسالة الجدية أن يقرنها بها ·· وأن كانت هي الاخرى لم تصل كاملة أيضا · ·

ظـاهرة التلميـح :

قلت من قبل أن الرسالة الجدية ، كأختها الهزلية ، تغص بالشواهد ·· سواء أكانت الشواهد نثرية ، أم شعرية ··

وكانت هذه الشواهد ، تعبر عما يدور في ذهن ابن زيدون · · من عتب أو اعتداد بذاته ·· أو تلويح بالهرب ، وكل ذلك تصريح أو بوح ظاهر بما تكنه نفسه من سخط مكظهم ، أو من استعطاف تشوبه الكبرياء ·· أو يذهب برقته الفخر والاعتداد · ·

ولكن هذه النصوص المختلفة التي استشهد بها ابن زيدون – ولأقصر الحديث هنا على الرسالة الجدية فقط – ترد احيانا كما هي أو كما رواها التاريخ ، وترد احيانا بالمعنى ، أي ان ابن زيدون يورد معنى النص لالفاظه ·· اذ تكون الالفاظ من عنده ، أو يقدم فيها ويؤخر ·· فكأنه يوميء اليه ·· ومن هذا ما يسمى : (بحل الشعر) ···

وحين تتبع شراح الرسالة هذه النصوص ، وردوها الى أحوالها وعزوها ، أو عزوا معظمها الي قائليها ·· حينما فعلوا ذلك ، أوردوا أيضا أو أورد بعضهم ، قصة النص ، أو قصيدة الشاعر · · أو أبياتا من قصيدة الشاهد · ·

والكثير من هذه الشواهد ، سيقت مساق العتاب وهو الموضوع الذي حام حوله ابن زيدون كثيرا ·

وبتأمل الرسالة بشواهدها الظاهرة ، كما أوردها ابن زيدون ، والشواهد التي أكملها الشراح ·· طرحت على نفس السؤال :

– هل اكتفى ابن زيدون من شواهده على هذه النصوص الظاهرة ··· أو ذهب الى أبعد من ذلك ، فلمح الى الشواهد الخفية التي لم يوردها ولكنه يعلم أن صاحبه يدركها ويدرك مراميه فيها ؟

بمعنى آخر – هل كانت سطور ابن زيدون تخفي معاني وأهدافا خلفها بحيث يصح أن نزعم أن هنـاك ما يسمى (خلف السطور) ؟ وأن الكاتب كان يعني أيضا هذ هالسطور الخلفية ؟ أي على طريقة ذلك الذي أنشد قصيدة المتنبي التي مطلعها : لك يا منازل في القلوب منازل ·· وهو يقصد من ورائها البيت الذي يقول :

واذا أتتك مذمتي من ناقص

فهي الشهادة لي بأني كامل

أنا لا أستبعد هذا ·· بل أرجحه ·· ذلك أن ابن زيدون ، كما يبدو من رسائله ، ومن كثرة استشهاده بالنثر والشعر ، كان يختزن في ذاكرته الواعية الكثير من النصوص ·· وان استشهاده الكثير ليدل على أنه لا يقف في حفظه عند هذه الشواهد ، بل هو يتجاوزها الى حفظ أصول تلك الشواهد ، ويمتلك القدرة على استحضار الشاهد حينما يريد وأن يسوقه مساقه الطبيعي ، في مكانه المطمئن ··

وكان يدرك ايضا ان صاحبه أبا الحزم ابن جهور ، هو الآخر اديب شاعر · وان كانت الدراسة القضائية قد غلبت عليه ·· فهو اذن مثقف من مستوى عال ·· وهو بحكم ثقافته ·· ولانه شاعر ، ولو كان شعره قليلا أو نادرا ، يعرف ولو بعض تلك القصائد التي ينتمي اليها بعض شواهد ابن زيدون ·· وبالتالي ·· يدرك المرامي البعيدة التي يرمي اليها الكاتب ·· أو يلمح اليها ·· بل هو يفترضها فيما لو جاءت هذه التلميحات بصورة عفوية ·· وليست عن عمد من ابن زيدون ذلك لان ابن زيدون عنده في مكان الاتهام··وظاهر نصوصه ·· يحمل الكثير من اللوم والعتب أن لم يكن التقريع ··أي هذا الظاهر ، يدعم الخفي الذي خلف السطور ··

ويؤيد هذا أن الرسالة ، على ما أفرغ فيهـا ابن زيدون من جهد ، وما أبدع فيها من فن ، لم تؤت أكلها ·· فلم يستجب لها ابن جهور ·· ولم تحرك فيه ساكنا ·· بل لعلها قد زادته يقينا بخطورة ذلك الكاتب القابع وراء القضبان ·· فرأى من الحكمة أن يدعـه حيث هو ··فكأنالرسالة قد أضافت اليه حنقاجديدا ···

مع أن ابن زيدون قـد حرص كثيرا على أن يغطي تهديده ، وتهكمه ·· واعتداده بأغلفة من المداهنة ·· ولكن صاحبه كان داهيـة لا يستهان بذكائه وحذره ، ولماحيته ··

استعراض الشواهد :

يستشهد ابن زيدون ، في رسالته الجدية بين الحين والحين ، بأبيات من شعر المتنبي في عتاب سيف الدولة ·· مـع علمه بما جبل عليه المتنبي من استعلاء ·· وما قد يرد في قصائـده من حدة في اللوم ، أو في الاعتداد ·· وقد يتجنب ايراد أبيات المتنبي ، ولكنه يومىء اليها ·· فيحلها نثرا · · كأن يقول مثلا في السطور الاولى من الرسالـة : « وغضضت عني طرف حمايتك ، بعد ان نظر الاعمى الى تأملي لك ·· وسمع الاصم ثنائي عليك ·· » وهو هنا يشير الى قول المتنبي :

(أنا الذي نظر الاعمى الى أدبي

وأسمعت كلماتي من به صمم)

وهي من قصيدة مطلعها :

واحـر قلبـاه ممن قلبـه شـبم

ومن بجسمي وحالي عنده سقم

والقصيدة في عتاب سيف الدولة :

واذا تأملنا هذه القصيدة : ولا بد أن أبا الحزم ابن جهور ·· قد فعل ذلك نرى أن المتنبي يقول فيهـا مما يصح انه يقصد ابن زيدون :

يا أعدل الناس الا في معاملتـي

فيك الخصام وأنتالخصم والحكم

اعيذها نظـرات منـك صادقة

أن تحسبالشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره

اذا أستوت عنده الانوار والظلم

أنا الذي نظر الاعمى الى أدبي
وأسمعت كلماتي من بـه صمم

أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلـق جراها ويختصم

وفيها يقول المتنبي :
يا من يعز علينـا أن نفارقهم

وجداننا كل شيء بعدكم عـدم
ما كـان أخلقنـا منـكم بتكرمة
لو أن أمركم من أمرنـا أمم
ان كان سركم ما قال حاسدنـا

فما لجرح اذا ارضاكم الـم

رغبتم وبيننا لو ذلك ـ معرفة

ان المعارف في أهل النهـي ذمم
كم تطلبون لنا عيبـا فيعجزكم

ويكره الله ما تأتـون والكـرم
ما أبعد **العيب والنقصان عن شرفي**

أنا الثريا ٠٠ وذان الشيب والهرم
ليت الغمام الذي عندي صواعقه

يزيلهن ٠٠ الى من عنده الديم
وفيها يقول :

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
ان لا تفارقهم فالراحلـون هم

شر البلاد ، مكان لا صديق به
وشر ما يكسب الانسان ما يصم

وشر ما قنصتـه راحتي قنص
شهب البزاة سواء فيه والرخم

وقد استشهد ابن زيدون ، في أكثر من موضع في رسالته ، بمواطن من هذه القصيدة ، وكأنه يرى شبهـا بين حاله وحال المتنبي ٠٠ فهو يلاقي جفـوة ابن جهور كما لاقي المتنبي جفوة سيف الدولة ٠٠ بل لقد امتحن بالسجن ٠٠ أي أنه كان في وضع أسوأ ٠ ٠ وكمـا لـوح المتنبي بالمبارحة والافلات من سيف الدولة ، كذلـك يلوح ابن زيدون بترك وطنه الى بلاد أخرى تخطب مودته وولاءه ٠٠

فابن زيدون يصرح معتدا بمكانته الادبية الرفيعة، مستخدما بعض تعابير المتنبي ٠٠ فاذا رجعنا الى هـذه، وجدناه يقول لصاحبه :

انـك لا تنصفني رغم عدالتـك وتستسمن مـن شحمه ورم :

واني قد صرت عندك الى اليأس ٠٠ بحيث تساوت الظلمة والنور ٠٠ وهي أكثر ما تكون كذلـك في مقر سجين ٠٠ وانك لم ترع حرمتي عليك ، ومكانتي عندك ، مع أن هذا مأمول في ذوي الذمم ٠٠ ومع انه لا عيـب في ولا ذنـب علي ٠٠ وأراني لا أرى من غيثـك الا صواعقه ٠٠ أما صوبه فهو عند غيري فليت الامر كان على عكس ذلك ٠٠ إذن فأنا معـذور ، ان فارقتكم وسيكون الراحلون أنتم لا أنا ٠٠ الخ ٠

كل هذا مما عبر عنه المتنبي ٠٠ لا يبعد أن يقصده ابن زيدون في تلميحاته الى هذه القصيدة ونجد أن ابن زيدون يعود لايراد شاهد آخر من هذه القصيدة ذاتها ، وكأنه يلح على ما يطابق حالته من معانيها ، فهو يقول في موضوع تال من رسالته

« فهلا كان هواك فيمن هواه فيك ، ورضاك لمن رضاه لك ؟

يا من يعز علينا أن نفـارقهم

وجداننا كل شيء بعدكم عدم »

ويشف هذا على اصراره على الافـلات من سجن ابن جهور ، والانطلاق الى غيره من أمراء الطوائف ٠٠

ومثل هذا التلميح بالمفارقة نجده في استشهـاده بهذا البيت : وهو أول ما استشهد بـه من الشعر في رسالتـه :

« كل المصائب قـد تمر على الفتـى

وتهون ، غير شماتة الحسـاد »

ولم يعز ابن زيدون هذا الشاهد لصاحبه ، وهذا رأيه فيما يورد من شواهد النثر والشعر ٠٠

والبيت **كما عزاه شراحة ، لعبد الله بن محمد بن** أبي عيينة الهلبي **من أبيات اوردنا هاهنا ، ما يصح** انه يلمح اليه ابن زيدون :

من بلـغ عنـي الامير رسـالة
محصورة عندي عـن الانشـاد

كل المصائب قد تمر على الفتى
فتهون غير شماتة الحساد

وأظن لي منها لديك خبيئة
ستكون ، عند الزاد ، آخر زاد

مالي أرى أمري لديك كأنه
من ثقله طود من الاطواد

وأراك ترجيه ، وتمضي غيره
في ساعة الاصدار والايراد

٠٠في الارض منفسح ورزق واسع
لي عنك في غوري وفي انجادي

كأنني بابن زيدون ، قد وجد في هذه الابيات ، متنفسا حقيقيا لذات نفسه ٠٠ فنفث ضيقه في بيت واحد منها ٠٠ ويدرك الامير الباقي وأحسب ان التلويح خاصة مما لا يفوت ادراكه على ابن جهور أو على ناصحيه ويتهم خصم ابن زيدون ، وكما قلت قبل : فان ابن زيدون ، يستشهد في أكثر من موطن بشعر المتنبي٠٠ لا لأن هذا الشعر ذائع مشتهر فحسب ، بل لذلك التشابه ، بين بعض الظروف والملابسات التي أحاطت بالمتنبي فجعلته كثير العتب ، كثير الشكوى ٠٠ وقد آلت حال ابن زيدون الى مثل ذلك ، عدا عن أن الرجلين يتشابهان في الاعتداد بالنفس ، وكان كل منهما يشعر أنه لم ينل المكانة التي يطمح اليها ، وان كان الامر يختلف اختلافا بينا في موقف كل منهما تجاه الاحداث ، وفي طريقة معالجتها ٠٠ مما افضى بابن زيدون الى ما حقق من نجاح أصبح معه في مكان الصدارة ، وأعتبر ذا الوزارتين ٠٠ بينما ظل المتنبي شديد أحلامه ٠٠

يقول ابن زيدون في رسالته :

« له الحمد على اهتباله ، ولا عتب عليه على اغفاله :

فان يكن الفعل الذي ساد واحدا

فأفعاله اللائي سرن ألوف ٠٠

وهذا الشاهد ، كما هو معروف ، للمتنبي ، من أبيات قليلة قالها عندما تعرض له بعض غلمان ابي العشائر ليوقعوا به ، ورماه احدهم بسهم وهو يقول : خذه ٠٠ وأنا غلام أبي العشائر ٠ فقال المتنبي :

ومنتسب عندي الى من أحبه
وللنبل ، عندي ، من يديه خفيف

فهيج من شوقي وما من مذلة
حننت ٠٠ ولكن الكريم ألوف

وكل وداد لا يدوم على الاذى
دوام ودادي للحسين ضعيف

فان يكن الفعل الذي ساء واحدا
فأفعاله اللائي سرن الوف

ونفسي له ٠٠ نفس الفداء لنفسه
ولكن بعض المالكين عنيف

فهل كان يريد أن يقول ابن زيدون من وراء هذا الشاهد ايضا ٠٠ ان بعض المالكين عنيف ، وانه ان صبر على سجنه فانما لان الكريم ألوف ٠ والا فهو يستطيع أن يكون غير ذلك ٠٠ ولكن الوداد القوي هو الذي يدوم على بدرات المحبوب ، ويتحمل في سبيله المكاره ٠٠ ؟ أحسب ان ابن زيدون كان فعلا يريد ان يقول ذلك ، فأكتفى بالتلميح ٠٠

ويقولون عن ابي الوليد ابن زيدون ، انه بحتري المغرب ، في مقابل ابن عبادة الوليد ابن عبيد الطائي بحتري المشرق ٠

وقد أورد بحتري المغرب ، أكثر من شاهد في رسالته الجدية ، لبحتري المشرق ، من ذلك قوله :

« ولا أخلو من أن أكون بريئا فأين العدل ؟ أو مسيئا فأين الفضل ؟ »

ألا يكن ذنب ، فعدلك واسع
أو كان لي ذنب ، ففضلك أوسع ٠٠

فهذا البيت هو ختام قصيدة أثبتت في ديوانه على أنها في مدح المتوكل ، وذكر المتوكلية ، مطلعها :

شوق اليك تفيض منه الأدمع
وجوي عليك تضيق منه الأضلع

وفيها أبيات عتاب ، قيل أنها موجهة الي « الفتح ابن خاقان » ٠٠ ومهما يكن الأمر ، فإني أورد الأبيات العتابية ، التي لا أستبعد أن يقصدها أيضا ابن زيدون ٠٠ مكتفيا في التصريح بايراد بيت واحد ، ليتكفل التلميح بايراد الأبيات الأخرى ٠٠

لننظر ماذا يقول البحتري في سياق العتاب :

اني – وما مضد الحجيج ، ودونهم
خرق تخب به الركاب وتوضع

أصفيك أقصى الود ، غير مضلل
ان كان أقصى الود عندك ينفع

وأراك أحسن من أراه وان بدا ..
منك الصدود ، وبان وصلك أجمع

يعتادني طربي اليك .. فيغتلي ،
وجدي ويدعوني هواك فأتبع

كلف بحبك مولع ، ويسرني ..
اني امرؤ كلف بحبك .. مولع

★ ★ ★

هل يجلبن الى عطفك موقف
ثبت لديك أقول فيه وتسمع

ما زال لي من حسن رأيك موئل
آوي اليه من الخطوب ، ومفزع

فعلام أنكرت الصديق ، وأقبلت
نحوي ركاب الكاشحين تطلع

وأقام يطمع في تهضم جانبي
من لم يكن من قبل فيه يطمع ؟

الا يكن ذنب فعدلك واسع

أو كان لي ذنب فعفوك أوسع

اننا نجد في هذه الأبيات الكثير من المعاني التي يقصدها ابن زيدون والتي تصح أن تنطبق على حالته مع صاحبه .. أفلا يسوغ لنا أن نقول أن هذه القصيدة بكل أبياتها العتابية كانت بين عيني ابن زيدون .. وانه أراد أيضا أن يضعها بين عيني ابن جهور .. مكتفيا بالايحاء عن طريق بيت واحد ؟.. أما اني لأظن ذلك ..

★ ★ ★

ويعود ابن زيدون للبحتري مرة أخرى ، فينشد بيتين من شعره هما

الست الموالي فيك غر قصائد
هي الانجم اقتادت مع الليل انجما

ثناء يظن الروض منه منورا
ضحى ، ويخال الوشي فيه منمنما

وهذان البيتان من قصيدة ماتعة مطلعها :

يهون عليها أن أبيت متيما
أعالج وجدا في الضمير مكتما

وفي هذه القصيدة أبيات كثيرة يصح أن يومىء اليها ابن زيدون ... غير مكتف بما امتن به على صاحبه من قصائد المديح والاطراء ...

يقول البحتري عن تغير صاحبه عليه وتوعر سهله واساءته بعد احسانه ، وانتقامه بعد نعمته .. وتخوف من ظلمه وجوره .. ويطلب اعادة النظر في أمره ... الخ ...

واصيك ، أن نازعته اللحظ رده
كليلا .. وان راجعته القول جمجما

ثناه العدى عني .. فأصبح معرضا
وأوهم الواشون حتى توهما

وقد كان سهلا واضحا فتوعرت
رباه .. وطلقا ضاحكا فتهجما

أمتخذ عندي الاساءة محسن ..
ومنتقم مني امرؤ كان منعما ؟ ؟

ومكتسب في الملامة ماجد
يرى الحمد غنما ، والملامة مغرما

تخوفني من سوء رأيك معشر
ولا خوف الا أن تجور وتظلما

أعيذك أن أخشاك من غير حادث
تبين او جرم اليك .. تقدما

ثم يأتي هنا بيتا الشاهد ، ليقول بعدهما الشاعر ، أو ليقول ابن زيدون على لسانه :

فلو انني وقرت شعري وقاره
وأجللت مدحي فيك أن يتهضما

لاكبرت أن أومي اليك بأصبع
تضرع .. ولو ادنى لمعذرة فما

وكان الذي يأتي به الدهر هينا
علي ، ولو كان الحمام المقدما

ولكنني أعلى محلك أن أرى
مذلا .. واستحييك أن اتعظما

أعد نظرا فيما تخطت هل ترى
مقالا دنيا أو مقالا الا مذمما

وكان رجائي أن أؤوب مملكـا
فعاد رجـائي أن أؤوب مسلمـا

ولا مانع ممـــا تدهمت غير أن
نذكر بعض الانس أو نتـذمما

وأكبر ظني انـك المرء لم تكن
تحلل بالظن الذمـام المحرمـا

حياء ٠فلم يذهب بي الغي مذهبا
بعيدا٠٠ولم أركب من الامر معظما

ولم أعرف الذنب الذي سؤتني له
فأقتل نفسي حسرة وتنـدمـا

ولو كان ٠٠ ما خبرته أو ظننته
لما كان غروا ان ألوم وتكرمـا

أذكرك العهد الذي ليس سؤددا
تناسيه ، والود الصحيح المسلما

وما حمل الركبان شرقا ومغربا
وانجـد في أعلى البـلاد واتهما

أقر بمـا لم اجنـه متنصلا
اليك ٠٠ على اني أخالك الوما

لي الذنب معروضا ٠٠وان كنت جاهلا
به ٠٠ ولك العتبى علي وأنعما

ومثلـك أن أبدي الفعال اعاده
وأن صنع المعروف زاد وتمما ٠٠

★ ★ ★

ونجد ابن زيدون ، في رسالته الجدية لا يكاد يبتعد عن المتنبي حتى يعود اليه فكأنما يلازمه شبحه ٠٠ولا ينفك عنه شعره العاتب ٠ وأن المتنبي لكثير الشكـوى ، كثير العتبى ٠٠

هذا ابن زيدون يقول : « أعيذك ونفسي أن أشيم خلبا ، أو استمطر جهاما ٠٠ وأكرم غير مكرم ، وأشكو شكوى الجريح الى العقبان والرخم ٠٠

وقوله : شكوى الجريح الى العقبان والرخم ٠٠ **هو عجز بيت للمتنبي صدره ولا تشك الى خلق فتشمتهم٠٠**

وهو من قصيدة ، يذكر فيها مسيره من مصر ، ويرثي **فيها** فأتكا ٠٠ مطلعها :

حتام نحن نارى النجم في الظلم
ولا سراه على خـف ولا قدم

نظرة على هذه القصيدة ٠٠فلعل **بها ما ينطق عن حال** ابن زيدون وعتبه ، ونطبق على وصفـــه ، **ويصح أن** يترجم عنه ٠ ٠

يقول المتنبي في هذه القصيدة ٠٠وأنا أترك الابيات دونما تعليق فهي في ذاتها معبرة ناطقة :

توهـم القـوم ان الفجر مغترب
وفي التغرب ما يدعو الـى التهم

ولم تزل قلة الانصاف ناطقـــة
بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم

هون على بصر ما شـق منظره
فأنما يقظـــات العين كالحلـم

ولا تشـك الى خلق فتشمتـــه
شكوى الجريح الى العقبان والرخم

وكن على حذر للنـــاس تستره
ولا يغر منهـم ثغر مبتســم

غاض الوفاء فما يلقاه في عـدة
وأعوز الصدق في الاخبار والقسم

سبحان خالق نفسي كيف لذبها
فيما النفوس تراه غايـة الالم

الدهر يعجب من حملي نوائبـه
وصبر جسمي على احداثه الخطم
وقت يضيع ٠٠ وعمر ليت مدته
في غير امته ٠٠ من سالف الامم

أتى الزمان بنوه في شبيبتــه
فسرهم ، وأتينـــاه على الهرم

وبعد ، فهذه وقفات عابرة ، عند بعض شواهـــد ابن زيدون ، ولم تكن محاولة استقصاء ٠٠ وهي وقفات تأمل ٠٠ وليست نظرات يقين وقد أحببت أن اضع هذه الوقفات بين أيدي الباحثين ، لعلها تلقي ضوءا أو تفتح طريقا ٠٠ وحسبي بها أياما طويلة في صحبة ابن يدزون انتقل فيها من رائق شعره ، الى بديع نثره ٠٠ لازداد هنا يقينا بشخصية ابن زيدون ، شخصية فذة فريدة ٠٠ وان أدبه عظيم ٠

الرباط : عبد العزيز أحمد الرفاعي

بردى

يكتب السماء مقالاً !

شعر : ابراهيم هواش خيربك

شاب لحن الهزار يا حرمون
يوم خلت طريقها ميسلون
وطوى الثلج في جيوبك لحنا
وهوى تحت قبضتيك الحنين
نفض الجرح عن حوافيه دمعا
وانطوى بين ضفتيه الانين
وذوى الهدب لا يندى وخلى
كل هدب وراءه الحسون
فمشى الوهم في جفون عجاف
وأناخت على قذاها الجفون
بردى حول بردتيك تداعت
نسمات الصبا وساد السكون
هجرت غصنك البلابل فالصمت
ثقيل يلفه الزيزفون
وكبا الفل عابسا وتولى
عاتبا في سياجه الياسمين
ظمىء الزرع فالحصاد انطواء
يتلوى وبيدر مأذون
ورغيف كأنه ليلة العيد
اشتهاء مر وعبد هجين
وحبيس بكوخه ليس يدري
كيف يخفي الاسى وكيف يبين
أ أنا • ام هو الذي نطر الكرم ؟•
فنام الضحى وساب التين
يا عروسا رداؤها ليلة العرس
واكليلها المنون المنون
اين رف الخدود فالشفه الحلوة
أغوث ونام عنها الخدين
سقسق الفجر في عيوني لهيبا
وتلاشى أمامها قاسيون
وكسرت القيود يرسف فيها
يوسف ، والمهند المسنون
فانبرى • والسماء تفسح دربا
وانتشى خلفه الصدى والرنين

نصبوه وفي اليمين حسام
في مكان ذ ناته المسجون
إنزعوا السيف • واكتبوه على الارض
سطورا يزينها التلوين
او دعوا السيف وارسموه على البدر
طعانا يشتاقه المطعون
إن سطر الدماء وحي من الجرح
وجرح من وحيه التبيين

★

يا حزيران ، يا نقيط الليالي
أنت من أنت ؟ أنكرتك السنون
هينات مصائب الدهر • لكن
أنت بلوى من بينها لا تهون
جردتك الايام من نسب العمر
فأنت المشرد الملعون

★

ومضى يغسل السماء من الاثم
ويندى على الربى تشرين
فكأني به على جبل الشيخ
قضاء • أو طائر ميمون
تارة يحضن الثلوج ، واخرى
يشعل الثلج بالدماء الطعين
فديوني يوم التقينا وفاء
ووفاء يوم التقينا ، الديون

★

يا أبا الابرياء صوت اليتامى
ناعم جرسه وانت الحنون
كم على ساعديك يغفو شهيد
وعلى مسمعيك صاحت بنون
أسدل الستر ان ثلجك أنقى
يوم يدعو الى النقا التلوين

★

يا أخا الارض والسماء ، تجلى
حول عرشيك ، وانتهى التكوين

زبد عارم ، وانت من المـــوج
شراع موثق وسفـــين
كلما انساب عبر شراعك لحن
أيقظ الذكريات زند هتـون

★

جمع الشمل بيننا يـوم تشرين
فحيت لقاءنا حطـــين
وانتضى كل فارس عربي
ألف سيف يقول كن فيكون
ذبح الغول وانتهى موسم الـغول
وساقت سـخالها ميسون
فعلى المنحنى حديث من الطـــل
ثغاء غض وراع أمـــين
وعلى العاليات من غبق السـيح
رداء ذيــوله الشربين
وزئـير في الغابة البكر يمتـد
ويغفو عـــلى مداه العرين

★

يعشق الشام ربهـا فله العرش
من الغوطتين عرش مكين
ولها الآي عطرتـه الخـــزامى
ولها الوحي شعرهـــا الموزون

★

يا ربيع الدماء ، تنمـو وتنمـو
مائجات مع المسـيل الغصون
سكر المجد من كؤوسك فالمجـد
مع الكـأس عاقـــل مجنون

★

من ليالي تشرين يعتصر الـكرم
فيصحو المتيـــم المفتون
تدهق الكأس من زنودك خمرا
ماج فيه التفـــاح والليمون
فـيروي الجولان احمر جون
ويروي سيناء جرح ثخـين

★

زغردات تموج ، والقدس تكبو
كلما أشرعت بكى محزون

أودعوها صدرا يشاطرها العيش
لهـاة حرى وحقـد دفـــين

★

حررتنا دمشق من رقدة الــذل
فتاه المحرر المســـكين
أيقظتنا من غفلة الوهم فـارتد
الى الوهم عـــابث وحرون

★

هرم العزم ، فاستراح ابو الهول
وقال الضياء شـــاخت عيون
خرست عينه العتيقة وانكبت
على وجهه الصـــدىء الظنون
وجرى النيل مثقـــل الخطو
فالفيض سقيم ، وخصبه موهون

★

حسبوا أننا فرشنا عـــلى الغيم
بساطـــا يظله الزيتون
حسبوا أننا مع الخطب الهـوج
أشارت بالنازلات اليمـــين
شربوا النصر كله فعـــلى العين
شرود ، وفي اللســـان مجون
وعلى قاسيون يحتضر الوهـــم
وتدحو الدجـى قنا لا تلـين
بـح صوتي ومات فيـه ندائي
وتلهى بزهـــده المأمون
وعلى مذبح الفداء يد الشـــام
وعنق يمدهـــا النسرين

★

بردى يكتب السمـــاء مقـــالا
نقط النجم وانتشى التلحـين
كلما ترجمت على جبـــل الشيخ
حروفـــا تطاولت صنين
إن عتبي عليك يا نيـــل لكن
ليس عتبي عليـك يا آمـــون

جبلة : ابراهيم هواش خير بك

مع الأحداث العالمية

عيد في أعماق الغابة

بقلم : بايك هاك ريم

في مطلع شهر نيسان ١٩٣٩ ، تجمعت وحدات الجيش الثوري للشعب الكوري في بي تاتينغ تزو من محافظة تشانغ باي تلبية لاوامر قائد الثورة الكورية العظيم المارشال كيم ايل سونغ ·

كان الوقت ربيعيا ، وقد خرجت البراعم الخضر الفتية على التلال الغارقة في أشعة الشمس ، لكن مساحات صغيرة من الثلج كانت ما تزال تصافح النظر تحت ظلال الصخور ·

وقد نهلنا المتعة من الربيع الى أبعد حد ·

كنا سعداء ،أولا لاننا خرجنا من مسيرتنا الشاقة ظافرين ، واكثر من هذا لاننا التقينا رفاقنا بعد فراق دام شهورا · كانوا امضى عزيمة من أي وقت سابق ، متحلين بمعنوية عالية · ولم يكن سرورنا ليعرف حدودا · وفضلا عن ذلك ، علينا ان نتقدم داخل الوطن مرة اخرى بقيادة المارشال كيم ايل سونغ شخصيا · كنا مشبوبين انفعالا ·

كانت معنوياتنا تناطح السماء ، واتسم هجومنا الربيعي منذ بدايته بشجاعة لا يشق لها غبار ، انقضضنا اولا على تشيو تشيا تيين في محافظة تشانغ باي في الثاني عشر من نيسان · كان شان اول صلية نار اصليناها العدو خلال هجومنا الربيعي هو انها نسفت دعايته المضللة الزاعمة ان المغاورين قد « ابيدوا عن بكرة ابيهم » ، فاستنهضت الناس بقوة الى نضال اليابان ·

واستمر هجومنا الربيعي دونما انقطاع ·

في السادس والعشرين من نيسان ، أغرنا على شي وو طاو كو تحت شعار: «احياء للاول من أيار باحراز مظافر قتالية عظيمة » ·

قتلنا وجرحنا اعدادا كبيرة من جند العدو ، وغنمنا كميات ضخمة من العتاد الحربي ، وحطمنا « قاعدة العمليات التأديبية » للعدو في وادي كون غول في محافظة تشانغ باي ·

رجع المارشال كيم ايل سونغ بعد المعركة الى ما تنغ تشانغ في شياو ته شوي حيث اصدر امره الى الوحدة باسرها بالخلود الى الراحة ، ودعا الى اجتماع للكوادر ·

نظرا لانتقالنا الى الهجوم الربيعي بعد مسيرتنا الشاقة ، كنا ، نحن مقاتلي الجيش الثوري للشعب الكوري ، نحس بشيء من الضنى عشية الحملة الى الوطن ·

لهذا الاعتبار ، اقترح المارشال كيم ايل سونغ ان نقيم احتفالات مفرحة بالاول من ايار ، ترفيها للمغاورين وتشبيبا لمعنوياتهم ·

اختتم المارشال الاجتماع باصدار توجيهات مفصلة بخصوص احتفالات الاول من أيار ·

يوم الثلاثين من نيسان ·

فيما كان الغسق يزداد جهمة ، التهب المعسكر السري في غابة ما تنغ تشانغ حيوية ونشاطا ·

كان الكوادر منهمكين يسهرون على تهيئة الاحتفال بالعيد ، فيما كان بعض المغاورين عاكفين على صنع

ورود من الورق تحت الخيام . وفي كل مكان ، في المطبخ حيث تهيأ الاطعمة الشهية ، وفي فرجة الغاب حيث تهيأ الارض للاحتفال بالعيد ، كان ثمة جو احتفالي نشيط يسود كل شيء .

اعطى المارشال كيم ايل سونغ اوامره الى كل وحدة من الوحدات لتشديد الحراسة وخاصة اثناء الليل. وسمح للاعضاء الاخرين بشرب الانخاب .

اقيمت مأدبة بسيطة بيد انها مما لا يطويه النسيان ، هنا وهناك في الغابة . كانت بمثابة احتفال مسبق بالحملة الوشيكة الى ارض الوطن .

كان هناك عدد من الخشابين والفلاحين من شي وو طاو كو يقيمون معنا آنذاك . فدعوناهم الى المأدبة .

وشربنا الانخاب ، نحن وصفاء مقر القيادة . وبعد حين ، انسللت خارجا من الخيمة .

كانت الليلة باردة رخية .

وكان الهواء في الغابة يرجع اصواتا منسجمة ، من غناء ، وضحك ، وعزف على المزامير والهارمونيكا ، فيما المكان باسره يغشاه مرح العيد امواجا .

بعد المأدبة ، خرج المارشال كيم ايل سونغ من الخيمة. وفيما الليل يتصرم ، اخذت الضجة تخف تدريجا، ثم ران الهدوء على أرض المعسكر . كان القمر يرنو الينا من فوق حافة غابة الارزية في الوادي الغربي ، والانجم تضيء في السماء الى الجنوب من نهر آمنوك كانغ الجاري على مسافة لا تزيد عن بضع عشرات الـ « ري » من حيث كنا .

بقي المارشال كيم ايل سونغ ينظر صوب الجنوب فترة من الزمن ، لعله كان يتفكر في مواطنينا الذين يعانون الامرين من طغيان اللصوص الامبرياليين اليابانيين ، أو في خطط العمليات العسكرية التي سيقود بها جيشنا الثوري للشعب الكوري داخل الوطن .

أسرعت في اعقابه . فاذا هو ينتقل من خيمة الى أخرى ، متفقدا احوال المغاورين الذين يغطون في النوم . وعندما كانت عيناه تقعان على رجال انزاحت الاغطية عنهم ، كان يصلح الاغطية عليهم .

رجع المارشال الى خيمة القيادة ، ولكنه لم يذهب الى فراشه ، بل طلب الي أن أنام .

سألته مستفسرا :

« ألن تنام ؟ »

قال انه سوف ينام بعد قليل ، ولكنه تناول كتابا وفتحه . خرجت من الخيمة بعد تردد قصير . وقفت خفيرا على باب الخيمة ، قائلا في نفسي :

« لقد شرع يقرأ كتابا في هذه الساعة المتأخرة ، والارجح انه سوف يسهر الليل بطوله » .

بدأ الليل ينجلي عن طلة الفجر . كان هذا صباح الاول من أيار .

جاء اعضاء من سرية الحرس الى خيمة القيادة حاملين ورودا زاهية من الورق صنعوها الليلة الماضية في عناية بالغة ، وعلقوا احداها على صدر المارشال .

وعلقوا ورودا ورقية كبيرة أخرى على صدور مندوبي العمال والفلاحين .

علقت زهرة قرمزية على صدر كل مقاتل انتظم في الصف ، واقفا انيق البزة حسن الهندام على ارض الاحتفال . وعلقت لافتات تحمل هذه الشعارات « اتحدوا يا عمال العالم اجمع ! » ، و « عاشت الثورة الكورية ! » ، فوق المنصة المؤقتة التي أقيمت تحت شجرة من الحور الرجراج ، ترفرف حواليها الاعلام الحمر ورايات من خمسة الوان زينت أرض الاحتفال في الغابة .

وعندما مر المارشال كيم ايل سونغ والكوادر وممثلو الجنود ومندوبو الشعب من أهالي المحلة أمام الاعلام وصعدوا المنصة ، اخذنا لهم التحية على ايعاز من الرفيق أو دجونغ هوب ، آمر الكتيبة السابعة .

وسرعان ما صدحت انشودة الاول من أيار بجلالة في الغابة . بدأ الاجتماع الاحتفالي بالاول من أيار ، يوم عيد العمال في جميع انحاء العالم .

« اصغوا يا عمال جميع البلدان

الى انشودة الاول من أيار تهز اركان الارض ... »

انشدنا انشودة الطبقة العاملة في العالم أجمع ونحن نشعر بفخار عظيم لاننا نقف في موقع الطرف الشرقي من الحركة الشيوعية العالمية ·

ثم وقف المارشال كيم ايل سونغ خطيبا بين عواصف التحية والهتاف التي اطلقها المغاورون · نظر الينا نحن المقاتلين من حوله في هدوء بعينيه الصافيتين العامرتين ذكاء ·

واهتز الهواء في الغابة طويلا بالتصفيق ، عندما هنأ المارشال كيم ايل سونغ الرجال والضباط وممثلي الشعب المحلي بمناسبة الاول من أيار ، عيد العمال في جميع البلدان ·

تحدث عن منشأ الاول من أيار وعن مغزاه التاريخي · ثم اسهب في الحديث عن الوضع السياسي في كوريا والاوضاع الراهنة للحركة الكورية · وعن نمو الحركة العمالية العالمية ، وظفر الثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي ·

قال متحدثا عن المهام القتالية لدى الجيش الثوري للشعب الكوري :

بسبب من مظاهرنا في معركة بو تشون بو وفي الاشتباكات الاخرى ، ومن نشاط عاملينا السياسيين في الوطن ، اخذ المد الثوري يتعالى في كوريا بعدما كان يسير منخفضا ، وراح الناس الذين تضاعفت آمالهم في التحرر الوطني ينضوون الى المنظمات الثورية افواجا متزايدة · غير ان الامبريالية اليابانية ، عدوتنا الحقود ، قد استنت تشريعات شريرة وفاقمت من قواها الشرطية ، وراحت تعتقل الوطنيين في كوريا وتزج بهم في السجون وتذبحهم · وهي تحاول الآن حتى حرمان الشعب الكوري من لغته · لهذا ، اخذ المد الثوري المتصاعد ينحسر مرة اخرى ، وتلبدت سماء الوطن بالسحب السوداء· لزام علينا أن نبدد هذه السحب ونلهم املا وايمانا بالظفر الجديد ·

علينا ان نجعل العالم باسره يعرف ان الشعب الكوري بعيد عن الرضوح للامبريالية اليابانية ، بل انه مفعم تصميما قويا على تحرره الوطني ·

بغية انجاز هذه المهام ، سوف يقوم جيشنا الثوري بالتوغل في ارض الوطن في الحال · ايها المقاتلون جميعا ، عليكم ببسالة لا يشق لها غبار !

انفجر التصفيق راعدا وتجاوبت اصداؤه طويلا في مكان الاحتفال من الغابة الهادئة ، فيما كان المارشال كيم ايل سونغ ينهي خطابه ·

كنا واثقين جميعا · نحن الحضور في الاحتفال ، من أننا سوف نحرز الظفر مهما كانت الصعاب · كنا مفعمين تصميما ، نحن المقاتلين ، على استرخاص كل قطرة من دمائنا في سبيل الظفر ·

كنت مشبوبا الى حد يصعب معه أن أضبط نفسي ، في أخذت آلاف الافكار تدور في خلدي ·

كما قال المارشال ، فقد أجتزنا مرحلة شائكة منذ الأيام الاولى لانشاء جيش الغوار وكان الشتاء الاخير قاسيا ولا ريب · واصل عشرات الالوف من قوات العدو تراكضهم في اعقابنا طوال الشتاء حتى انهم استدعوا الطيران · وفضلا عن هذا ، فقد مر بنا زمن أعوزنا فيه الطعام ، فبقينا نتضور جوعا طوال اكثر من شهر كامل ·

كان الجو قاسيا ، وانخفضت الحرارة حتى ٤٠ درجة تحت الصفر ، وبلغ ارتفاع الثلج اعلى من قامة الانسان ، وغطى جذور الاعشاب وكل ما كان يصلح طعاما ·

غير اننا شققنا سبيلنا عنوة خلال اكوام الثلوج واهاجنا جوعنا بالتهام الثلج · هكذا قاتلنا فهزمنا العدو ·

بايمان لا يقهر بالماركسية اللينينية ، كنا على يقين أن هزيمة العدو ·

كانت قيادة المارشال كيم ايل سونغ لثورتنا تسدينا تشجيعا لا حدود له · الهمنا هذا الثقة والقوة ، فحاربنا وفقا للاستراتيجية الباهرة والتاكتيك الرائع للمارشال كيم ايل سونغ بقيادته الحكيمة ، يشد بعضنا ازر بعض على روح الرفاقة الدافىء ·

تطلعت حوالي الى رفـــاقي في السلاح ، وقرأت الافكار ذاتها في ملامحهم المتوترة .

كانوا يبدون لي واثقين بالظفر ، عازمـــين على القتال صامدين باعتبارهم جنودا ماركسيين اتحدوا بقيادة المارشال كيم ايل سونغ .

اعتلى الرفيق آن كيونغ سوك منصة الخطابـــة ، وعبر باسمنا ، في صوت متحمس ، عن تصميمـــه على أن يكون أشد وخلاصا في انجاز المهام الثورية التي رسمهـــا المارشال كيم ايل سونغ ، وانه سوف يقاتل حتى آخـــر قطرة من دمائـــه .

والقى مندوب العمال كلمة تهنئة .

لا أستطيع ان انسى ملامح ذلك المندوب حتى اليوم . كانت له بنية قوية وبشرة سمراء .

القى من حيث وقف على المنبر نظرة شملتنا نحن المقاتلين المنتظمين في الصف ، وتلألأت عينـــاه حماسة . ثم خفض بصره لحظة ، واسمي عينيـــه ، وقال في صوت مرتعش :

« ايها الرفاق الاعزاء » :

انهمر الدمع على وجنتيه .

بدا انه لا يبالي بتلـــك الدموع . بل وقـــف هنيهة يحدق في موضع واحد ثم مسح الدمع عن مقلتيه ، وتابع كلامه بصوت مرنان :

« ايها الرفاق الاعزاء ، لن انسى هذا اليوم المؤثر قط ... لن انسى ما رأيت ، وسمعـت ، وتعلمت ، في هذا المكان . أريد أن أحيا معكم ... لكن الجنرال كيم ايل سونغ طلب الي ان اعود الى القرية بدلا من أن ابقى هنا الى جانبكم ، ولهذا ، فسوف أعود . ولكني أخلف قلبي ورائي ههنا ... ايها الرفاق الاعزاء ، ارجوكم ان تطردوا اللصوص اليابانيين من بلدنا في اسرع وقت مستطاع .

« سوف أضع موضع التنفيـذ ما تعلمت ههنا ، وكذلك كلام الجنرال كيم ايل سونغ . وأعدكم بأن اقدم كل مساعدة نشيطة ... »

ورفع يديه فوق رأسه ، وشبكهما ببعضهما ، وهزهما بقرة واعاد مرارا وتكرارا انه سيضع موضع التنفيـــذ حتما كلام المارشال كيم ايل سونغ .

بينما كنت اصغي الى كلامه ، احسست بقلبي يزداد دفئا . شددت من تصميمي بوجه خاص على انجاز أهدافنا لدى التوغل في ارض الوطن الذي كنا نخطط له يومذاك . ولم يكن هذا هو شأني أنا وحدي .

عندما نزل عن منصة الخطابة ، صافحه المارشال كيم ايل سونغ مبتسما ، وبدا لنا انه يهمس له شيئا . وتراءت عينا العامل تتلألآن عزما وحزما .

وهنأنا ممثل الفلاحين بدوره على ظفرنا بلهجـــة متحمسة . واثبتت عزمه على النشاط في امداد الجيش الثوري للشعب الكوري بالمؤن .

اختتم اللقاء الاحتفالي بالاول من أيار في الغابة بانشاد « نشيد الجيش الثوري للشعب الكوري » . أقام ذلك الاحتفال الدليل على التضامن الجهادي بيننا وبـين عمال جميع البلدان ، وعلى ما لـدى الجيش الثـوري للشعب الكوري من قوة قتالية .

وسرعان ما استحالت المنصة الى مسرح اخذ المقاتلون الاباة يقدمون عليه المشاهد ، راقصين مغنين حتى ساعة متأخرة من الليل .

كل عام خلال النضال المسلح القاسي على اليابان، كنا نحيي الاول من ايار بمعنوية عالية ، ونقيم احتفالا بهذه المناسبة مهما كان بسيطا .

بيد ان الاحتفال بالاول من أيار ذلك العام كان زاخرا بالحياة ، فأمدنا بايمان أشد رسوخا بالظفر .

بعيد ذلك بايام ، وبقيادة المارشال كيم ايل سونغ ، اندفعنا أباة عبر الحدود على الرغم من حراسة العـــدو المشددة ، ودعسنا حازمين على ارض الوطـن الغالي . انزلنا الضربات القاصمة متوالية بالغزاة الامبريـاليين اليابانيين المتحصنين في بلدنا ، فألهمنا بذلـك شعبنـا ، أهلنا واخوتنا ، بثقة متجددة في التحرر الوطني .